

القسم الأول

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي
دراسة ارتقائه

- الباب الأول : من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية .
- الباب الثاني : ارتقاء الاستجابات الاجتماعية منذ الطفولة .

obeikandi.com

الباب الأول

من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية

obeikandi.com

مقدمة

معنى التكامل الاجتماعي - بعض مظاهر التكامل الاجتماعي

معنى التكامل الاجتماعي:

موضوع هذا البحث هو الكشف عن الأسس النفسية للتكامل^(١) الاجتماعي. والخطوة الأولى في هذا السبيل هي أن نحدد ميدان بحثنا ، لنبين (على وجه التقريب) مجموعة الظواهر التي سوف تكون موضع عنايتنا دون غيرها . وهنا نرى لزاما علينا أن نبدأ بتحديد تقريبي لمعنى التكامل ، علما بأن هذا التحديد سيظل مليئاً بثغرات لن يسدها إلا مضمون البحث نفسه .

لا يقتصر استخدام مفهوم التكامل على مجال الظواهر الاجتماعية فحسب ولكنه يستخدم في مجال الظواهر البيولوجية والسيكولوجية كذلك ، أي أنه يستخدم في جميع مجالات الحياة (A. Lalande 1925) . ولذلك نفهم كيف أن باحثاً مثل جردسون هيريك يقرر أن التكامل هو الشرط الأول للبقاء (C.J. Herrick 1949) ، وبعبارة أخرى أن التكامل هو الصفة الأولى والرئيسية للمادة الحية .

فالموسوعة البريطانية وجولييان هكسلي J. Huxley وآخرون يستخدمونه في مستوى الظواهر البيولوجية ، في حين يستخدمه أندرسون (H.H. Anderson 1943) وكاتل (R.B. Cattell 1943) وونثروب (H. Winthrop 1946) والدكتور يوسف مراد (١٩٤٨) في مستوى الظواهر السيكولوجية ، ويستخدمه دوركهيم

(E. Durkheim 1926) وكاتل في مستوى الظواهر الاجتماعية .

- والقسط المشترك بين الاستعمالات الثلاث لدى هؤلاء الكتاب جميعاً هو أن التكامل يشير إلى تآزر^(١) مجموعة الوظائف الحيوية (البيولوجية أو السيكولوجية أو الاجتماعية) في سبيل الإبقاء على وحدة الكل ، وبذلك يكون لدينا في النهاية كائن حي أو شخصية أو مجتمع ، لا مجرد مجموعة من الخلايا أو الملكات أو الأفراد .

إلا أن جلدسون هيريك يقرر أن التكامل لا ينطوي على معنى التآزر فحسب ، بل وعلى معنى التغيرات^(٢) أيضاً (C.J. Herrick 1949) . ومن ثم فالتكامل عملية^(٣) كبرى ، وليس مجرد حالة . ولهذا الرأي أهمية بالغة في الرد على بعض النظريات الاجتماعية التي لا ترى في المجتمع المتكامل إلا جانب الاستقرار ، فتقرر أنه صفته الكبرى والرئيسية . ومن هذا القبيل نظرية برجسون (م.سويف ١٩٤٩ ، H. Bergson 1932) ذلك أن التكامل هنا تكامل في مستوى المادة الحية ، ومن ثم فلا بد أن يكون تكاملاً دينامياً لا تكاملاً ثابتاً (استاتيكيّاً) كالتكامل بين أجزاء الآلة ، إذا جاز استخدام الاصطلاح في هذا المجال .

والتكامل زيادة على ذلك عملية ارتقائية ، تمر بمستويات تعين درجات متفاوتة في كفاءة الكائن الحي أو النظام الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله . ويتم انتقالها بفضل عمليات التغيرات أو الأفراد^(٤) التي تخل بالتآزر المتحقق وتتجه نحو تآزر جديد أكثر ارتفاعاً وكفاءة .

فإذا أردنا أن نبين الأهمية الخاصة لهذا المعنى المفصل لاصطلاح التكامل بالنسبة لبحثنا هذا ، قلنا إنه لا يكفي للإبانة عن الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي أن نكشف عن تلك العمليات النفسية الجارية وراء الأنماط أو

differentiation (٢)

individuation (٤)

coordination (١)

process (٣)

المنظمات الاجتماعية القائمة بالفعل ، بل يجب أن نكشف أيضاً عما يمكن من تغيير هذه الأنماط وتطويرها ، وبعبارة أخرى يجب أن نحسب حساب الجانب التاريخي في هذه الأنماط ، بحيث تستطيع المفاهيم^(١) التي نتقدم بها أن تفسرها من حيث هي مستقرة ومتطورة في آن واحد .

والواقع أن هذا الفهم لمعنى التكامل هو الذي كان مسيطراً على أندرسون H.H. Anderson في مقاله المنشور بعنوان « السيطرة والسلوك المتكامل في الحياة الاجتماعية » فهو يقرر أن « عبارة السلوك المتكامل اجتماعياً » تنطبق على الاستجابات التي تتميز بالمرونة ، أى على السلوك الذي يحاول أن يبرز الخلافات القائمة لدى الآخرين ويلتمس بينها هدافاً مشتركة (H.H. Anderson 1943) . وعلى هذا الأساس نفسه يحصى واردن C.J. Warden من بين الميزات النوعية للحياة الاجتماعية الإنسانية الابتكار إلى جانب التواصل^(٢) وتكوين العادات الاجتماعية (C.J. Warden & P.R. Farnsworth 1942, p. 393) وإلى مثل هذا المعنى يذهب الدكتور ر. ت. لابيير R.T. Lapiere ، وتتلخص في عملية التآزر والتضامن من ناحية ، وفي عملية الائتثار من ناحية أخرى ، أى خضوع بعض المراكز السفلى لسلطة المراكز العليا في الجهاز العصبي (ى . مراد ١٩٤٨) ، وعندما يحدد مهمة علم النفس التكاملي بأنها تفسير كيفية انتقال الإنسان من طور الفردية البيولوجية إلى طور الشخصية السيكولوجية والاجتماعية (ى . مراد ١٩٤٨) ، فلا يكفي أن نفسر نمط التكامل القائم بل يجب أن يتضمن تفسيرنا انتقال هذا التكامل من نمط إلى نمط آخر من حيث أسبابه وكيفيته . كذلك نتوسم بعض هذا الاهتمام بالجانب التاريخي في عملية التكامل عند دوركهيم ، وذلك في تفرقة بين نوعين من التكامل الاجتماعي : أحدهما هو التكامل الآلي ويسود في المجتمعات البدائية ، وقوامه التشابه بين أعضاء المجتمع تشابهاً يكاد يكون تاماً ، والآخر هو التكامل العضوي

ويسود في المجتمعات المتمدينة وقوامه التبادل والتفاعل بين شخصيات المجتمع المتباينة (E. Durkheim 1926) .

والخلاصة أن التكامل الاجتماعي كما سنعرض له في هذا البحث لا يعني مجرد التضامن^(١) الاجتماعي ، بل يعني التضامن الذي يسمح بأن يتعدل نمطه من حين إلى آخر ، فهو تضامن دينامي متطور . ولا شك في أنه يقوم على عوامل متشابكة ، منها الاجتماعي التاريخي والاقتصادي والنفسى والبيولوجى . إلا أننا نستصر أساساً على الكشف عن العوامل النفسية ، فإذا عرضنا للعوامل الأخرى فمن حيث تأثيرها في هذه العوامل النفسية أو تأثيرها بها .

وفي هذا الموضوع يحسن بنا أن نزيد من توضيح ما نعنى بصفة « النفسية » . فالشائع أن هذا المفهوم مرادف تقريباً لمفهوم « الفردية » (G. Gurvitch 1950, p. 31) ومعنى ذلك أن الحديث عن الأسس النفسية يعنى الحديث عن الأصول الفردية الباطنية ، وبوجه خاص تلك القدرات^(٢) والاستعدادات^(٣) الفطرية . إلا أننا لم نقصد إلى هذا المعنى . ذلك أنه مع التسليم بوجود استعدادات فطرية في الفرد فإن هذه الاستعدادات تبدو في حدود معلوماتنا الحاضرة من الاتساع بحيث لا يمكن الوقوف عندها لتفسير أشكال السلوك الخاصة كما تصدر عن فرد واحد في عدة مواقف متباينة ، أو عن عدة أفراد في موقف واحد . هذا إلى أن الاتجاه العلمى الحديث يفضى إلى تفسير المواقف بالكشف عن الطرق التي تنهجها التفاعلات بين قواها المختلفة ، ولا يكتفى بالكشف عن رصيد الطاقة الذى يمكن من قيام هذه التفاعلات (K. Lewin (a) 1935) أضف إلى ذلك أن تعذر تحديد مضمون فكرتنا عن هذه القدرات والاستعدادات — وهو ناتج عن أننا نجد أنفسنا دائماً بصدد تحقق لهذه القدرات والاستعدادات — يجعل موقفنا ينطوى على

تناقض حاد يجب كشفه تمهيداً للتخلص منه . والخطوة الأولى في هذا السبيل تتمثل في الإجابة على هذا السؤال : كيف نصل إلى القول بوجود هذه القوى والاستعدادات الفطرية ؟ والجواب أن ذلك يتم عن طريق ملاحظة مظاهر السلوك وتتبع أوجه الشبه والاختلاف بينها . ومعنى ذلك إذا أردنا فعلاً أن نسمى الأشياء بأسمائها ، أننا نفسر القدرات والاستعدادات الفطرية عن طريق مظاهر السلوك المتحققة فعلاً ، ثم إننا نعود فنحاول تفسير مظاهر السلوك عن طريق القول بوجود هذه القوى . أى أننا ندور في دائرة مفرغة . والرأى عندنا أن الاستعدادات الفطرية – العضوية والنفسية – يجب عدم الرجوع إليها إلا عندما نكون بصدد التفرقة بين مستويات مختلفة في السلسلة الحيوانية . أما عندما نكون بصدد تفسير تغيرات السلوك داخل مستوى واحد فيجب أن يكون معظم اهتمامنا محصوراً في دائرة التفاعلات^(١) . وعلى ذلك فسيستجبه اهتمامنا أولاً وقبل كل شيء إلى هذه التفاعلات التي لا يمكن وصفها بأنها نفسية فقط ولا بأنها اجتماعية فقط بالمعنى التقليدي لذين المفهومين ، بل هي نفسية اجتماعية تلتقي في الفرد وتنعكس عليه (G. Gurvitch 1950, p. 31)

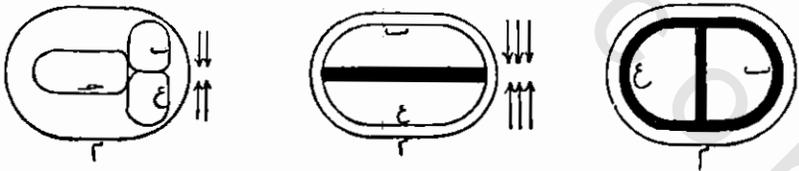
بعض مظاهر التكامل الاجتماعي :

لا نقدم جديداً عندما نتكلم الآن – في منتصف القرن العشرين – عن وحدة المجتمع وتكامله ، فالواقع أن هذه الفكرة قد احتلت مكانتها في ميدان البحث العلمي منذ أواسط القرن الماضي ، بفضل جهود أوجست كونت A. Comte ثم إميل دوركهايم E. Durkheim وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية بوجه خاص . ولكن لما كانت النظريات العلمية تتأثر بالمناخ الاجتماعي السائد في محيطها ، فقد جد من الظروف والتغيرات ما يستدعى إعادة تأكيد بعض القضايا

(١) سنعود إلى معالجة هذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصول قادمة .

العامّة الرئيسية لدى هؤلاء الباحثين، وعلى رأسها القضية القائلة بأن المجتمع وحدة متكاملة . ذلك أن جو نمو القوميات الذي كان سائداً في أوروبا الغربية طوال القرن التاسع عشر ، والذي أتاح لتلك النظريات أن تظهر وتعيش وتنمو ، قد تغير اليوم وأصبح جو ضغط على القوميات ، من خارجها (ويتجلى ذلك في ضغط الحركات الاستعمارية على بعض المجتمعات) ومن داخلها (ويتجلى ذلك في صراع الطبقات بوجه خاص) ، مما جعلها عرضة لتوترات عنيفة ، وأبرز الحاجة إلى إعادة تأكيد وحدة المجتمع وتكامله .

١ - والواقع أن ما نشهده من صراع داخل المجتمع لهو نفسه دليل على وحدته . ذلك أن موقف الصراع إذا نظرنا إليه من وجهة نظر دينامية وجدناه يتضمن عدة قوى متنافرة وعدة قوى متجاذبة . ولا يمكن القول بأنه يتضمن عدة قوى متنافرة فحسب ، وإلا لتباعدت العناصر وانتهى الأمر ، ولما ظهر الصراع أصلاً . ولكن وجود القوى المتجاذبة مع القوى المتنافرة في نفس الوقت هو الذي يجعل الموقف موقف صراع (J.F. Brown 1936; K. Lewin 'a' 1935) . وعلى هذا الأساس نلاحظ أن براون J.F. Brown في تصويّره الطوبولوجي للمجتمع في حالة الصراع بين طبقاته يصور لنا الحدود الفاصلة بين الطبقات وقد ازداد سمكها في حين أن الحدود الكبرى المحيطة بها جميعاً (أي حدود الأمة أو المجتمع الكبير وهي تمثل القوى



المجتمع في حالة صراع طبقاته المجتمع في حالة الثورة المجتمع في حالة الإضرابات العامة

هذه الأشكال تصور تنظم المجال الاجتماعي في مواقف صراع الطبقات والثورة والإضرابات العامة . (على أساس غير كمي) .

ب = طبقة البورجوازية .

م = حدود المجتمع .

ع = الجمهور غير المنتظم في عضوية طبقية

ع = طبقة العمال .

واتجاه الأسهم يشير إلى اتجاه الصراع .

الجاذبة المؤلفة قد أصبحت دقيقة ، ولكنه لا يحذفها أبداً ، وحتى عندما يصور لنا المجتمع في حالة الثورة الطبقة لا يستطيع أن يحذف الحدود الخارجية بل يبقى عليها أيضاً (J.F. Brown 1936, pp. 172-193) .

وقد شرح جاك لندساي J. Lindsay هذه الفكرة نفسها بقوله إن المجتمع وحدة دينامية قائمة على أساس معين ، وإن هذه الوحدة تستمر فعالة في جميع مراحلها التاريخية، وما نسميه صراع الطبقات إن هو إلا توترات داخل هذه الوحدة تزداد شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مرحلة معينة يتحتم فيها قيام اتزانها وتكامله على أساس جديد. كذلك كان ماركس K. Marx يقول « العمال والبرجوازية تناقضان ، ومن حيث إنهما تناقضان فهما يكونان كلا متحداً » ذلك أنهما من نتاج عملية تاريخية واحدة . وما يؤيد هذه الملاحظة أيضاً ويوضحها ما نشاهده من أن المجتمع إذا تهدده خطر خارجي كالاستعمار مثلاً فإن صوت الخلافات الداخلية يخفت ، ويزداد الشعور بوحدة المجتمع وتجانسه أمام هذا الخطر ، مما يدل على أن روابط الوحدة كانت قائمة من قبل لكن تأثيرها كان خافتاً وسط ضجيج التناقضات . وقد أشار براون إلى المضمون الطوبولوجي لهذه الحقيقة بقوله : إن أصوات الصراع الطبقي تخفت عندما يزداد الشعور بالعضوية التومية. كما أن مكيدوجل W. McDougall أدخلها في حسابه عندما كان يخصص من بين الشروط التي من شأنها أن تزيد شدة التكامل الاجتماعي اشتباك المجتمع في حرب مع مجتمع آخر .

ولزيادة هذه الفكرة إيضاحاً نضرب مثلاً بالشخصية العصابية، فهي تشبه المجتمع المشحون بالتناقضات وضروب الصراع المختلفة ، تسودها التوترات والمنازعات الداخلية، لكن لهذه التوترات والمنازعات جميعاً دلالة هامة هي أنها دفاع عن

national membership-character

(١)

The Groul Mind by W. McDougall (Through : *Psychol. &*

(٢)

The Social Order", by J.F. Brown; p. 73)

وحدة الشخصية وتكاملها، ولذلك فإننا نجد المريض يحتفظ ببعض الاستبصار،^(١) مما يدل على أن الوحدة العميقة للشخصية لا تزال قائمة لم تصب بسوء ، ولا يفقد هذا الاستبصار تماماً إلا في الحالات الذهانية الحادة ، وعندئذ يكاد يختفي كل أثر للصراع الداخلي .

٢ - وثمة مظاهر أخرى للوحدة الاجتماعية ، نذكر من بينها «الطابع الاجتماعي للشخصية» فمن الأقوال الشائعة أن المصري يغلب عليه الهدوء ، والدعة والميل إلى النكتة والاستقرار ، والفرنسي يمتاز بشحنه الانفعالية الكبيرة وما ينبجم عنها من تعبيرات متضخمة سواء في نبرات الكلام وفي الإشارات والأوضاع المصاحبة له والصيني مسالم (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 74) ، والألماني متهور بعبء الدولة ويتحمس لها إلى درجة الجنون (J. Huxley 1943, p. 113) ، إذا تكلم أطلق صوته عالياً حتى وإن جرى حديثه في جلسة خاصة، على عكس الأمريكي الذي يتكلم بصوت منخفض نسبياً سواء أكان يوجه حديثه في جمهور كبير أم كان في نفر قليل (K. Lewin 'b' 1948) . ولا تصدق هذه الصفات في حالة المجتمعات المتمدنية فحسب ، بل تصدق أيضاً في حالة المجتمعات البدائية . وقد أجرت روث بندكت R. Benedict بعض البحوث في هذا الصدد على أربعة مجتمعات بدائية هي : بعض قبائل الهنود الحمر المقيمين في السهول ، وقبائل الزوني في الساحل الجنوبي الغربي ، وقبائل الكواكيوتل في الساحل الشمالي الغربي ، والدوبوان في ميلانيزيا . فانهت إلى أن طراز الشخصية السائد في كل من هذه المجتمعات على التوالي هو : المهوس^(٢) أو الديونيزي Dionysian ، والمعتدل أو الأبولوني Apollonian ، والشخصية التي يغلب عليها جنون العظمة^(٣) ، والشخصية التي يغلب عليها الاتجاه الشبيه بالفصامي الهذائي^(٤) (J. Gillin 1949; D. Katz & R. Shanck 1947, p. 520). كذلك أجرى

manic (٢)

schizoid-paranoid (٤)

insight (١)

megalomaniac (٣)

هالول A.I. Hallowell بحثا مماثلا على جماعتين من جماعات الهنود الحمر ، إحداهما مقيمة بالقرب من الساحل والأخرى بالداخل ، واستخدم في بحثه هذا اختبار رورشاخ (١. رمزي ١٩٤٦) فأنهى إلى أن الطراز السائد في الجماعة الساحلية يغلب عليه الانبساط وأن الطراز السائد في الجماعة الداخلية يغلب عليه الانطواء (٢) (A.I. Hallowell 1949) كذلك انتهت مارجریت ميد M. Mead إلى تحديد الخطوط الرئيسية للشخصية في مجتمع الماوري بنيوزيلندا بأنها مزيج من السمات الفردية والاجتماعية يغلب عليه الاتجاه التعاوني ، على عكس الشخصية في مجتمع الأسكيمو (في جرينلند) فهي ذات اتجاهات فردية إلى حد كبير ، وذات نظرة واقعية ملحوظة مع فقر شديد في الخيال .

(D. Katz & R. Shanck 1947, p. 519)

والذي يهمننا من هذه البحوث وأمثالها هو أن هذه الظاهرة ، ظاهرة الطابع الاجتماعي للشخصية تدل دلالة واضحة على أننا بصدد عملية اجتماعية واحدة في أساسها ، تصنع من الأفراد — وهم شديدو المرونة لا سيما في بواكير الطفولة (A.I. Hallowell 1949; H.H. Newman 1947; W. Dennis 1947) نماذج بينها بعض أوجه الشبه التي لا يمكن إغفالها ، والتي يمكن أن تفرقهم في مجموعهم عن أبناء أي مجتمع آخر. ومعنى ذلك أن الحياة الاجتماعية وإن كانت موزعة بين عدة أجهزة أو مؤسسات إلا أن هذه الأجهزة من التماسك السيكولوجي بحيث تلتقى جميعاً في مصب واحد، مما يدل على أنها أجزاء في مشروع واحد هو المجتمع الكبير. وهذا ما استنتجته روث بندكت ، فكان بمثابة أساس متين لإقامة بحوث « الطابع الاجتماعي للشخصية » (G. Gorer 1950) وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم قول علماء ، الاجتماع بأن عملية التربية عملية اجتماعية وليست عملية فردية يقوم بها المرابي مستوحيا فلسفته الخاصة في الحياة (ع . عزت ١٩٥١; K. Lewin 'b' 1942) ولما كان

وجود هذا الطراز^(١) دليلاً على وحدة المجتمع فما لاشك فيه أن استقراره ووضوح معالمه يتأثران بما يتتاب هذه الوحدة من توترات وتمزقات (A. Davis 1943) كما أن مضمونه يتغير بتغير النظم الداخلية التي تستقر عليها الوحدة. (J.F. Brown 1936, p. 126; J. Huxy 1943 p. 113)

٣ - كذلك تعتبر ظاهرة «الرأى العام» مظهراً من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، ونتيجة من نتائجها (W. Bauer; A.N. Holcombe 1928; G. King 1928; J. Maisonneuve 1951) وربما كان من أكثر هذه المظاهر حساسية لما يظهر في المجتمع من توترات وخلافات ؛ ففيه تنعكس هذه التوترات بسرعة واضحة . ولا أدل على ذلك من نتائج الانتخابات البلدية والبرلمانية ، إذ تظهر بداخل المجتمع عدة فئات ذات مصالح مختلفة وآمال وأهداف متعارضة ، ولكن هذه الاختلافات لا تصل إلى الدرجة التي تقضى فيها على الجذور العميقة للوحدة الاجتماعية ، وإلا لما ظلت الوحدة قائمة والاعتماد المتبادل سارياً في حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والفكرية جميعاً . وقد أوضح بوير W. Bauer هذه الحقيقة في حديثه عن العوامل التي تؤثر في تشكيل الرأى العام وتوجيهه ، إذ ذكر من بين هذه العوامل :

١ - المستوى العام للمدينة أو الحضارة .

٢ - الأدوات الحضارية الشائعة الاستعمال للتعبير في مرحلة معينة .

٣ - الخصائص القومية التي تمتاز بها الجماعة .

وبدهى أن آثار هذه العوامل تعم جميع الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد ، وبالتالي فهي تعمل على التوحيد والربط بينها في مقابل العوامل التي تعمل على إثارة الفرقة والخلاف (R. Thouless 1939; A. Davis 1943) ،

(١) يعقد أيزنك H.J. Eysenck فصلاً في كتابه 1953 "Uses & Abuses of Psychology"

(ص ٢٤٣ - ٢٦٠) يقرر فيه أن البحوث في موضوع الطابع القوي الشخصية لم تقم بعد على أسس علمية متينة ، لكنه لا يرفض هذا المفهوم . ويشير إلى الطرق العلمية الدقيقة التي يمكن سلوكها نحو بحثه وإكسابه مضمونه .

ولذلك يلاحظ الباحث الاجتماعي المدقق أن هناك أحكاماً وآراء حول بعض شئون الحياة الشخصية والاجتماعية والكون والقدر تظل سائدة لدى الجميع رغم اختلافاتهم المهنية والطبقية . ويمكن القول بوجه عام بأن البناء الفكرى السائد لدى أعضاء المجتمع يتألف من مناطق محيطية سريعة التأثير بما ينتاب أنماط حياتهم من تغيرات ، ومناطق أخرى مركزية شديدة المقاومة للتغير ، فلا تصل إليها إلا آثار التغيرات العنيفة التي تعترى أساس اتزان الوحدة الاجتماعية كلها . وتعتبر الفنون الشعبية على اختلافها (وخاصة الألوان الأدبية منها) من أهم جوانب هذا البناء وأكثرها وضوحاً ، إذ تتضمن « أحكام القيم » التي تصدرها الأغلبية في كثير مما يعرض لها ، وتكون بمثابة العملة المعترف بها لدى هذه الأغلبية . وقد فطن كبار الفنانين إلى هذه الحقيقة فجعلوا هذه الآثار الفنية الشعبية هي المصدر الأول لإلهامهم ، وهكذا استلهم إسخيلوس وسوفوكليس قصص هوميروس ، واستلهم شكسبير الكثير من القصص الشعبي الشائع في مجتمعه ، وكذلك جوته وسائر الفنانين الكبار ، فضمنوا لأعمالهم الديقوع والبقاء .

٤ - ويمكننا أن نضيف إلى الأمثلة الثلاثة السابقة أمثلة أخرى لعدة مظاهر تدل دلالة واضحة على قيام الوحدة الاجتماعية ، كوحدة اللغة ووحدة التقاليد والعادات . لكن هذه الأمثلة أصبحت من شدة الوضوح بحيث لا نرى ما يدعو إلى إسهاب القول فيها . ونكتفي بأن نضيف مثالا واحداً من حياة المجتمعات البدائية لما له من أهمية خاصة .

يلقى تومسون G. Thomson السؤال التالي : ماذا يحدث عندما يقتل المرء أحد أفراد عشيرته؟ ثم يجيب قائلاً: يُلْعَن ويطرد خارج العشيرة، وبذلك يصبح خليعاً فلا يعود عضواً في المجتمع (G. Thomson 1950, p. 34). ويقول برستياني J.G. Peristiany في أثناء حديثه عن مجتمع الكبسيجيس إنه يكفي لإرغام الفرد على الخضوع لأحد أوامر القبيلة التهديد باللعنة الجماعية (J.G. Peristian 1939, p. 5) والنقطة التي نريد أن نوضحها في هذين المثالين هي شعور المجتمع

البدائي بحدوده بحيث تكون الدلالة الدينامية لطقوس اللعنة هي إخراج الملعون خارج هذه الحدود .

وهناك طقوس أخرى تجرى في مناسبات مختلفة تبرز أيضاً هذا الشعور بالحدود، ولكن بطريقة مضادة ؛ ومن أهم هذه الطقوس تلقين الأسرار^(١) وفي ذلك يقول برستياني إن ما يجعل لتلقين الأسرار هذه الأهمية الكبرى لدى الكبسجيس هو الختان والطقوس السرية التي يتلقاها الشباب سوياً ، مما يجعلهم يشعرون بأنهم يشاركون في خبرات ومعارف بأشياء لا يدركها الغرباء ، وبذلك ينهض لديهم الشعور بالوحدة والانسجام القبلي (J.G. Peristiany 1939, p. 27) .

ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة « أكل لحوم البشر » أو النمنمية^(٢) لدى بعض الشعوب البدائية تمارس في بعض الحالات كتعبير عن الوحدة والتقارب الاجتماعيين (W.G. Sumner 1930) . ويذكر لوسيان ليثي بريل L.L. Bruhl أن الشعور بهذه الوحدة وهذا التقارب يكون بارزاً بشكل ملحوظ لدى بعض القبائل، قبائل البانتو مثلاً، إذ تعتبر أمواتها أعضاء فيها ، وبهذا الاعتبار تجرى عليهم طقوس الموت ، وعلى العكس من ذلك لا تجرى هذه الطقوس على جثة الميت الغريب (L.L. Bruhl 1930) . ويبدو أن هذا التعبير عن الوحدة كان قائماً في اليونان القديمة . ولذلك تقرر عدم إجراء طقوس الموتى على بولينيكيز ، أنخي أنتيجونا ، لاتهمه بالخيانة العظمى (سوفوكليز) . كذلك جرت العادة في أثينا قديماً بتقديم الفتيان إذا ما بلغوا سناً معينة تقديماً رسمياً إلى العشيرة التي ينتمي إليها آباؤهم ، وتعد لذلك ولهمة خاصة تعرف باسم أباتوريا Apatouria أي ولهمة الرجال أبناء العشيرة الواحدة . وكانت تجرى في أثينا أيضاً طقوس أخرى لها تلك الدلالة نفسها، فعندما كان أحد الأشخاص يعود إلى مسقط رأسه بعد أن يشاع عنه أنه مات ويبيكه أهله ، كانت العادة تقضى بأن يعاد إدخاله

في مجتمعه بوساطة حفل تقليدى يتألف أساساً من محاكاة للميلاد ، وكان هذا الشخص يوصف بأنه deuteropotmos أى الشخص الذى تلقى نصيبه فى الحياة للمرة الثانية . (G. Thomson 1950, P P. 28, 50) .

وفى هذه الأمثلة عن الطقوس الخاصة « بعبور الحدود » نستطيع أن نرى أثراً واضحاً من آثار الوحدة الاجتماعية . ولا شك أن الظروف المحيطة بالمجتمعات البدائية هى التى تتيح لأعضائها الشعور بالوحدة على هذا النحو من البروز ، ومن هذه الظروف حجمها الصغير نسبياً ، ونمط حياتها ، ودرجة ارتقائها . إلا أن التطور الاجتماعى لايعنى بطبيعته فقدان الوحدة ولا تخلخلها ، لكنه يعنى ازدياد تعقدها نتيجة لازدياد التغيرات بداخلها . وهذا التعقد هو ما يضمنى الغموض على الوحدة (F.G. Bartlett 1923) .

على أننا سواء انتقينا أمثلتنا من المجتمع البدائى أم من المجتمع الحديث أم من المجتمع فى أية مرحلة من مراحل الارتقاء المتوسطة فس نجد الأدلة المتعددة على قيام الوحدة وظهور آثارها ، لكننا سنجد كذلك كثيراً من الأدلة على قيام الاختلافات داخل هذه الوحدة ، وسنجد الأدلة على أن هذه الاختلافات تزداد أحياناً حتى لتبدو خطراً يهدد التكامل الأساسى ، وذلك فى فترات الانتقال الكبرى . ويبدو بوجه عام أن المجتمعات المتمدينة أكثر تعرضاً لأزمات التكامل من المجتمعات البدائية ، وكأن هناك تناقضاً حاداً فى داخل هذا التكامل بين عوامل التضامن والتعاون من ناحية وبين عوامل الارتقاء والتغيرات من ناحية أخرى . وهذا بالضبط هو التشخيص الذى وضعه برجسون للأزمة الزاهنة فى مجتمعات الحضارة الغربية ، ووضع الخطوط الرئيسية لحلها بإعادة تنظيم تلك المجتمعات على أساس نمط الحياة البدائية . (م . سويف . H. Bergson 1932; 1949) .

والسؤال الآن هو : هل يوجد فعلاً هذا التناقض بين عوامل التعاون وعوامل الارتقاء ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نبين كيف تم عملية التكامل

الاجتماعي ، وكيف تم في أنماط بسيطة أحياناً وفي أنماط أشد تعقداً أحياناً أخرى ، وما هي العوائق التي تصادفها أحياناً وكيف يمكن التغلب عليها . والبحث الذي نحن بصددده إنما هو محاولة للإجابة على هذه الأسئلة – في حدود تخصصنا . وسيتضح في النهاية أن التناقض الذي توهمه برجسون لا وجود له إلا بشكل مؤقت يمكن التغلب عليه ، مع الاحتفاظ بالثمرات الكبرى للارتقاء ، وهي : التعاون والتغاير ، أو التنظيم والحرية .

الفصل الأول

التكامل الاجتماعي في التجمعات تحت البشرية

ليست الحياة الاجتماعية وفقاً على الإنسان (C.J. Herrick 1949) ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن حياة الإنسان الاجتماعية بما لها من مطاوعة شديدة وتعقد بالغ وقف عليه . وهذا بالضبط ما يمرره آلى W.C. Allee ويركيز R. Yerkes ، ولذلك يفضلان استخدام كلمة التجمعات^(١) الحيوانية ، مفردين مفهوم المجتمع للإشارة إلى الجماعة البشرية . والنتيجة التي نرتبها على ذلك أن التكامل الاجتماعي ظاهرة كبقية ظواهر الحياة ، تتطور بتطور الأنواع الحية ، وتظهر بمظاهر مختلفة في المستويات المختلفة من هذا التطور . ومن بين مظاهرها هذا المظهر الإنساني الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن جميع مظاهرها في المستويات التطورية السابقة .

من هنا يتحتم علينا ونحن نقوم بهذا البحث في « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي » أن نقدم لبحثنا بدراسة فيلوجينية لأسس^(٢) التكامل الاجتماعي (شروطه ودينامياته) في الجماعات الحيوانية ، وإلا كان هذا البحث مبتوراً ، وإلا كنا كعالم الحيوان الذي يهتم بدراسة الحيوانات الراقية دون الحيوانات الدنيا ، أو كعالم النبات الذي يهتم بدراسة النباتات الزهرية دون أن يلقى بالا إلى الطحالب والفطريات . والنتيجة الأخيرة أننا لن نفهم الدلائل البيولوجية للحياة الاجتماعية ، وبالتالي فسينتهى أمرنا إلى أن نقضى على كل صلة بين السلوك الاجتماعي والحياة بمعناها البيولوجي .

phylogenetic (٢)

associations (١)

وقد قسم مرسيل برنان M. Prenant المستويات التطورية الكبرى للحياة

الاجتماعية تحت البشرية إلى أربعة مستويات ، هي :

١ - مستوى التجمعات التي تحدث بفعل مؤثر خارجي ، وتزول بزواله .

مثال ذلك ما نشهده من تجمع الفراشات حول المصباح المضيء . ومن أهم مميزات هذه التجمعات انخفاض درجة استقرارها ، وعدم تغير سلوك أفرادها في داخلها عما كان عليه في خارجها .

٢ - مستوى التجمعات التي تتأزر فيها حركات الأفراد دون أن يشتركوا

في القيام بعمل واحد . ويلاحظ هذا في أرجال الجراد وفي كثير من الطيور المهاجرة كالخطاف (١) والسمان (٢) . وفي هذه الجماعات يبدو توقيت (٣) الحركات بشكل ملحوظ . إلا أن هذا التوقيت يقوم في مستوى يختلف تماماً عن المستوى الذي يقوم فيه توقيت حركات العمال في أحد المصانع ، فليس بين التوقيتين سوى تشابه شكلي فحسب .

٣ - مستوى التجمعات التي يشترك أفرادها معاً في القيام ببعض الأعمال

الجماعية ، من هذا القبيل جماعات الحارود (٤) ، فهي تبنى أكواخها بالقرب من مجارى المياه . وتستعين بالعمل الجمعي في إقامة خزان للمياه تحت قريتها (التي تتألف من مجموعة أكواخ متجاورة) يرفع منسوب المياه إلى مستوى معين . ومن هذا القبيل أيضاً جماعات التنوط (٥) ، فهذه طيور تنسج أعشاشها متلاصقة ثم تقيم فوقها سقفاً مشتركاً . كذلك تدخل في هذه الفئة جماعات النمل والنحل .

٤ - وأخيراً هناك تجمعات الثدييات ، وتظهر فيها ظاهرة جديدة

لا تتوفر في الجماعات سالفة الذكر ، ألا وهي أن لها حكماً فاعلين يمارسون

quail (٢) swallow (١)

حيوان قارض برمانى (شرف) beavers (٤) synchronisation (٣)

weaver-birds (٥)

سلطة فعلية على سائر أفراد الجماعة ، وهذه بوادر التنظيم الداخلي .
والفكرتان الرئيسيتان اللتان يجعلهما برنان في تقسيمه هذا مقياساً للارتقاء
هما الاستقرار والتنظيم^(١) الداخلي . ففي أدنى المراتب التجمعات العابرة ، وليس
لهذه التجمعات من التكامل الاجتماعي سوى المظهر . وفي أعلى المراتب
التجمعات المستقرة ذات التنظيم الداخلي ، كجماعات النسانيس الناجمة
والبابون والشمبانزية . وهذه الجماعات على درجة من التكامل الاجتماعي
لا يمكن إنكارها . فالتجمع فيها قائم بغض النظر عن كثير من العوامل
الفيزيائية في بيئتها ، وبذور التغير واضحة في هذا التنظيم الداخلي للعلاقات
بين أفرادها . ويتفق آلـى W.C. Allee مع برنان في اتخاذ هاتين الفكرتين أساساً—
للتقسيم التطوري للحياة الاجتماعية (W.C. Allee 1935) .

هذه النظرة التطورية إلى الموضوع هي السبيل الأوحـد إلى تحاشي
التورط في أحد تطرفين كلاهما لا تبرره الوقائع . فهناك من ناحية بعض
الباحثين الذين يرون في بعض التجمعات تحت البشرية صورة دقيقة للمجتمع
الإنساني (A. Manhattan 1951) ، ومن ناحية أخرى باحثون يرون في الحياة الاجتماعية
ميزة إنسانية خالصة . وكلا النظرتين لا تبررها الوقائع . فالجماعات تحت
البشرية في أرقى مستوياتها — تجمعات النسانيس الناجمة والبابون والشمبانزية —
لا تتوفر فيها بحال من الأحوال هذه الدرجة من التغير والتعقد التي نشهدها في
الجماعات البشرية حتى البدائية منها (T.C. Schneirla 1941) ويكفي أن نذكر هذا
الفارق الهام بين جميع التجمعات تحت البشرية وبين المجتمع البشري ،
وهو أن نمط^(٢) التنظيم الاجتماعي في أي تجمع تحت بشري نمط متحجر إلى حد
بعيد ، لا يكاد يتطور دون أن يصحبه تطور بيولوجي يتتاب أفراد التجمع ، أو
تغير يتتاب البيئة الفيزيائية التي يحيا فيها التجمع ، فهو إذن مرتبط بالخصائص
البيولوجية للفصيلة أو النوع^(٣) ، أو مرتبط بخصائص البيئة الطبيعية المحيطة .

وهكذا لا نجد في الجماعات المختلفة التابعة لنوع واحد والتي تحيا في بيئة طبيعية واحدة عدة أنماط للتنظيم الاجتماعي بل نجد نمطاً واحداً. وعلى الضد من ذلك ما نشهده في المجتمع البشري ، فمنطه قد تغير وتطور في أنظمة متعددة منذ المجتمع البدائي حتى المجتمع الحديث ، ولم يحدث تطور يوازيه في الخصائص البيولوجية للنوع ، كما أن السلالات ^(١) البشرية المختلفة تحيا في أنظمة متشابهة في كثير من الأحيان ، أضف إلى ذلك أن كثيراً من المجتمعات البشرية قد تطورت في حياتها الاجتماعية مارة بكثير من النظم أو الأنماط دون أن يكون ذلك مصحوباً بأي تغير يذكر في بيئتها الطبيعية . وبعبارة أخرى ليس ثمة ارتباط بين الخصائص البيولوجية للسلالة وبين نمط الحياة الاجتماعية القائم ، أو بينه وبين خصائص البيئة الطبيعية (وفيما يتعلق بهذه الحقيقة الأخيرة يلاحظ أنها تزداد وضوحاً كلما تقدم المجتمع وازداد ارتقاء) .

هذه الحقيقة ، لا سيما شطرها الأول ، على جانب كبير من الأهمية . وسرى أنها جوهر إنسانية الإنسان . فهي ترتبط ارتباطاً جوهرياً بمرتبته العليا في سلم التطور من حيث إنها عنوان قدرته الكبيرة على التكيف مع بيئات متباينة تبايناً شاسعاً ، وتدل دلالة واضحة على ما تمتاز به الطبيعة البشرية من مطاوعة شديدة لا تتوفر في أى مستوى من مستويات التطور تحت البشرية . وتلك حقيقة تتفق تماماً مع الحقيقة السيكولوجية التي يجمع عليها علماء النفس ، والتي تقرر أن نطاق الاكتساب ضئيل جداً في سلوك الحيوان إذا ما قورن بنطاقه في سلوك الإنسان (ي . مراد ١٩٤٣ ص ١١٣) . والفرق بينهما من الضخامة بحيث يحتم وضع الإنسان في مستوى تطوري فريد . وقد عبر أمرسون A.E. Emerson عن ذلك تعبيراً طريفاً بقوله : لما كان الأفراد في الجماعة البشرية يستطيعون أن يعتدوا على النظم الاجتماعية القائمة فقد وجدت الجماعة البشرية

(١) races ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب :

نفسها في حاجة إلى إقامة عدة أجهزة تشريعية وتنفيذية وقضائية لضبط السلوك الاجتماعي بداخلها ، أما الحشرات الاجتماعية فليس لديها هذه الأجهزة لسبب بسيط هو أنها تكاد تكون اجتماعية بالفطرة . (O.E. Plath 1935) .

على أن التطرف المضاد الذي يمضي إلى حد القول بعدم وجود أية حياة اجتماعية تحت بشرية تطرف تدحضه عدة وقائع كذلك . فتتجمع عدد من الأفراد وحياتهم معاً لفترة قصيرة أو طويلة ظاهرة شائعة في السلسلة الحيوانية لدى كثير من الحشرات والأسمك والطيور والثدييات (F. Alverdes 1935; S. Freud 1940; C.J. Herrick 1949; M.F.A. Montagu 1947) ولا نستطيع إغفال هذه الظاهرة لاسيما وأنها ليست غالباً نتيجة لمؤثرات فيزيقية من بيئة الحيوان، ومن المحقق أن إغفالتنا إياها سوف يجعلنا عاجزين عن إدراك الفرق بين سلوك الحيوانات الاجتماعية وسلوك الحيوانات الانعزالية، كما أنه سيجعلنا عاجزين أيضاً عن إدراك خصائص سلوك الحيوانات التي تتجمع في بعض الفصول وتتفرق في بعضها الآخر ، والفرق بين سلوكها في فصول التجمع وسلوكها في فصول التفرق. وبوجه عام ستورط عندئذ في مثل ما تورط فيه بعض دارسي السلوك الإنساني الذين اعتبروا الفرد وحدة سلوكية قائمة بذاتها ، وأغفلوا علاقاته بجوانب البيئة الخارجية المختلفة ، وكأنه نظام من الطاقة مغلق . والواقع أن هناك جوانب من السلوك الحيواني لا يمكن تفسيرها إلا من خلال سلوك الحيوانات الأخرى التي تقوم بمثابة جزء من بيئته (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

فمن الحقائق الهامة أن هذه الحيوانات في تجمعها لا تكون بمثابة كائنات متجاورة فحسب ، بل إنها لتتفاعل فيما بينها أيضاً ، ويتجلى أثر ذلك فيما يطرأ على سلوك الأفراد من تغيرات . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ظاهرة «تدرج السيطرة» الملحوظة لدى الطيور والثدييات ؛ فمجموعة الطيور أو الثدييات التي تعيش معاً تنتظم علاقات الأفراد فيها في صورة نظام للسيطرة يتدرج من أشد الأفراد سيطرة إلى أكثرها خضوعاً ، ويكون لهذا النظام درجة

واضحة من الاستقرار ، ويبدو أثره أكثر ما يبدو في أوقات تناول الطعام ، فإن أكثر الأفراد سيطرة ينال أكبر قدر من الطعام وأكثرها خضوعاً ينال أقل نصيب . على أن ترتيب الحيوان في سلم السيطرة يؤثر في جميع جوانب سلوكه الأخرى ، وقد أجرى جيمس W.T. James دراسات تجريبية في هذه الظاهرة عند الجراء ، فانهى إلى أن تأثير السيطرة قد يصل إلى درجة أن الجرو الخاضع يتوقف لديه سيل اللعاب بمجرد ظهور الجرو المسيطر في مجاله ، كما أنه في العملية الجنسية تعطى المكانة الممتازة للجرو المسيطر (W.T. James 1949) كذلك أجرى واردن وجولت C.J. Warden & W. Galt دراسات في هذه الظاهرة نفسها لدى النسانيس ، فلاحظوا أن مجرد ظهور الحيوان المسيطر على مرأى من الخاضع مع قيام الحواجز المادية التي من شأنها أن تمنع وصول الأول إلى الثاني من شأنه أن يجعل الأخير يستمر في سلوكه الخضوعي فيخشى الاقتراب من الطعام ويمتنع عن التقاطه ، كما لاحظوا أن السبق في الفرار من قفص التجربة يكون من نصيب الحيوان المسيطر أولاً بمجرد إتاحة الفرصة لذلك . وأجرى شلدرب إبهه Schjelderup Ebbe وآلى W.C. Allee وبيمان Beeman ونوليس V. Nowlis دراسات متعددة على الدجاج والخرذان البيضاء والشمبانزية (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) لاتدع مجالاً للشك في هذه الظاهرة وتكشف عن كثير من جوانبها . ومن الأمثلة الواضحة كذلك على أن التجمعات الحيوانية ليست مجرد مجاميع من وحدات متجاورة منعزلة ، بل هي وحدة دينامية تتخللها التفاعلات بين مناطقها غير المتجانسة ، ظاهرة « التنشيط أو التيسير الاجتماعي »^(١) ومؤداها أن المظاهر السلوكية المختلفة لدى الكائن تزداد شدتها عندما يكون وسط جماعة تمارس هذا السلوك. وقد لاحظ روس S. Ross وروس J.G. Ross في دراستهما التجريبية على تناول الطعام لدى الجراء أن وجود الجرو الشبعان في حضرة جراء أخرى جوعانة مقبلة على الأكل بنشاط من شأنه أن يدفعه إلى

الاستزادة من الطعام رغم شبعه ، ووجدنا أن مقدار الزيادة التي كان يتناولها الجرو الشبعان حينئذ كان يتراوح بين ٣٠ ٪ و ٢٠٠ ٪ من مقدار الوجبة التي أشبعته ، كذلك لاحظنا أن الجرو الذي يأكل مع جماعة من الجراء يتناول كمية من الطعام أكثر من تلك التي يتناولها وهو منعزل ، وتراوح الزيادة بين ٣/١ و ٨٦/١ (S. Ross & J.G. Ross 'b' 1949) . كذلك لاحظ باير E. Bayer وجود هذه الظاهرة لدى الدجاج ، كما لاحظ هارلو ويودين H.F. Harlow & H.C. Yudin وجودها عند بعض أنواع الجرذان (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) والنسائيس ، ولا جدال في أن هذه الظاهرة تنطوي على بوادر عاملي المحاكاة والمنافسة . وقد ذكر آلى بضع تجارب أجريت للتحقق من وجود هذه الظاهرة فيما يتعلق بسرعة التعلم لدى أفراد السمك ، تبين منها أن ازدياد كثافة التجمع السمكي — إلى حد ما — يصحبه ازدياد سرعة التعلم لدى أفرادها (W.C. Allee 1935) ، كما قرر ألفردس F. Alverdes بضع ملاحظات على سلوك الحيتول والخنازير المستأنسة والذئاب تثبت ازدياد شدة أفعالها العادية داخل الجماعة . (F. Alverdes 1935) .

وثمة مثال ثالث يدل على مدى أهمية عامل « علاقة الفرد بالآخرين » في تفسير الكثير من جوانب السلوك الحيواني ، ونعني به ظاهرة « التمرين » التي بمقتضاها يكتسب الوليد بعض خصائص سلوك الأم ، وأحياناً الأب كذلك . ومعنى ذلك أن هناك نوعاً من نقل التراث الاجتماعي بين الأجيال المتعاقبة لدى الحيوان (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 43) وتلك هي البذور الأولى التي تنتج في المستوى الإنساني ظاهرة الحضارة التي لا وجود لها في المستوى الحيواني . فقد حدثنا سكوت W.E.D, Scott منذ أواخر القرن الماضي بأن تغريد صغار الصفاريات التي تنشأ بين الكبار يختلف عن تغريد تلك التي تنشأ نشأة منعزلة (G. Murphy & others 1937 P.20) كذلك يحدثنا شنيرلا T.C. Schneirla عن تغيرات هامة تنتاب سلوك صغار النمل خلال الأيام القليلة التالية للفقس ، وهي تغيرات يتأخر ظهورها إذا ما بدأت الصغار حياتها في جماعات لاتضم فعلة مدربين ، ويقول — تعليقاً على ذلك — إن هذه الظاهرة وغيرها تنطوي على تعلم تتسع دائرته إلى جانب العوامل

الفطرية التي لا شك في وجودها. وتدل بحوث فون فريش K. von Frisch على وجود الاكتساب الاجتماعي لدى النحل أيضاً (T.C. Schneirla 1941) ويرى بلاث O.E. Plath أن ظاهرة العلاقة بين الأم والصغار لدى الحشرات تنظم في مستويات ارتقائية تبدأ بمستوى الأنثى التي تضع بيضها دون أن تلتج إليه بأية عناية، وتنتهي بمستوى الأنثى التي تفارق الصغار والتي تساهم بنصيب واضح في تشكيل سلوكهم (O.E. Plath 1935). وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح في حالة الثدييات، وهذا ما تبينه تجربة كو Z.Y Kuo للكشف عن حقيقة السلوك العدواني الذي تديبه القطط نحو الجرذان ، وقد انتهى من هذه التجربة إلى أن هذا السلوك مكتسب تكتسبه صغار القطط من كبارها ، حتى إن الصغار التي نشأها تنشئة منعزلة عن الكبار وفي صحبة دائمة مع الجرذان منذ الصغر لم تبد منها أية بادرة من بوادر السلوك العدواني نحو الجرذان عندما شبت (Z. Y. Kuo 1938). وفي الثدييات العليا كالشمبانزية تبدو هذه الظاهرة بأوضح مظاهرها وبصورة لا يمكن إغفالها ؛ فالوليد الشمبانزي يكون عند ولادته عاجزاً إلى حد كبير بحيث إذا ترك وشأنه فإنه يهلك ، وتظل مدة اعتماده على أمه وتعلقه بها ورعايتها له حوالي ثلاث سنوات ، يلقى في أثناءها التدريب على المشي والتسلق ابتداء من الفترة التي تراوح ما بين الشهر الثالث والشهر الخامس من عمره . وتقاوم الأم في البدء المحاولات الأولى من جانب الصغير للحركة المستقلة ، ثم لا تلبث أن توجهها وتيسرها بطرق أمكن تسجيلها بالتصوير السينما توجرافي ، هذا إلى أنها تقدم إليه الغذاء والحماية وتعده فراش نومه من الأغصان وورق الشجر . ويقول يركيز R.M. Yerkes في هذا الصدد: يجب ألا ننفر هنا من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب لمجرد أننا في مستوى دون المستوى الإنساني ، بل يجب أن نستعمل هذه الكلمات ، إذ أن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزي تقصد فعلاً إلى تشجيع وليدها ومساعدته على الاستقلال الحركي ، بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم بعضاً من الوقت أثناء

السنة الأولى من العمر . (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .
 هذه الأمثلة الثلاثة لظواهر السيطرة والتيسير الاجتماعي واكتساب بعض
 عادات الآخرين تدل دلالة واضحة على أن التكامل الاجتماعي ليس وليد
 المستوى الإنساني وحده ، لكن جذوره تمتد إلى أعظم من هذا المستوى بكثير ،
 بحيث يتحتم علينا أن ننظر إليه كوظيفة بيولوجية ترتبط في ظهورها وتطورها
 ببلوغ الحياة مستويات تطورية معينة . ولم يغر بعض الباحثين بإغفال هذه
 الحقيقة الهامة إلا استمرار النظر إلى السلوك الاجتماعي الإنساني والقياس
 عليه . ونظراً لما ينطوي عليه هذا السلوك من تعقد هائل ومطوعة تفوق كثيراً
 مطوعة السلوك الحيواني ، بدأ هذا الأخير وكأنه نتيجة مباشرة لحوافز فطرية
 لا يتطرق إليها التعديل نتيجة لسلوك الآخرين . هذا بالإضافة إلى بعض الأسباب
 المنهجية كالاقتصار على الملاحظة دون التجريب . لكن هذه النظرة لا يبررها
 إلا اتساع المسافة بين السلوكين والإصرار على النظر إلى السلوك الحيواني عبرها .
 غير أن الاقتراب من مجالات هذا السلوك والتأمل في دقائقه من شأنه أن
 يكشف عن درجة من « التفاعل الاجتماعي » في مستويات أدنى من مستوى
 الحياة الإنسانية ، مما يضيف دليلاً جديداً على أن الفرق بين سلوك الحيوان
 وسلوك الإنسان فرق في مستوى التطور لا فرق في الطبيعة .

على أن هذا القول لا يعني بآية حال أن المسافة ضئيلة ، وأنها يمكن
 عبورها بعمليات تربوية معينة . فمن الحقائق الهامة أن بعض ظواهر الحياة
 الاجتماعية الإنسانية لا وجود لها في حياة التجمعات الحيوانية حتى في أرقى
 مستوياتها . مثال ذلك ظاهرة التعاون ^(١) بين الراشدين وظاهرة اللغة . وقد حاول
 واردن وجولت J.Warden & W. Galt تعليم ثلاثة أزواج من النسانيس التعاون
 فيما بينها على أساس أن يتعاون الفردان في كل زوج على جذب صندوق ثقيل توجد عليه
 كمية من الطعام ، فلم يفلحوا (C.J. Warden & W. Galt 1943) . ولا تعتبر تجارب

كروفرود M.P.Crawford على الشمبانزيتين بمبا وبولاً أكثر توفيقاً من ذلك، إذ أن سلوك الاثنين نحو بعضهما البعض كان متحجراً بشكل واضح. فعندما كان الطعام يوضع في القسم المخصص لبولا من القفص كانت بمبا تحاول دائماً أن تخطفه بالقوة، فتتخذ يدها من السياج الفاصل وتحاول اختطافه من يد بولا أو من فمها. وعندما كان يوضع في القسم الخاص بمبا كانت بولا تتوسل دائماً فتمد ذراعها وتبسط يدها على الطريقة الإنسانية (M.P. Crawford 1941) ولما كان السلوك التعاوني ينطوي أولاً وقبل كل شيء على درجة واضحة من المرونة تتجلى في قدرة الفرد على تفهم سلوك الغير (M. Parten 1943) وفي قدرته على تغيير سلوكه تبعاً لمواقف الآخرين (R. Benedict 1951) وفي استعداده للعمل على التوافق مع الغير (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942 p. 293) فإننا لا نستطيع أن نقر بوجود سلوك تعاوني بين بمبا وبولا، ولا يمكن ظهور سلوك « الإهابة والتوسل » عند بولا لكي نقرر أنها كانت تسلك سلوكاً تعاونياً، ويمكن أن نقارن بينه وبين سلوكنا عندما نطلب إلى أحد زملائنا خدمة معينة ونلقى منه الرفض، فإننا عندئذ لا نطلب بنفس الطريقة بل نتحول إلى أساليب أخرى كاللوم أو الإغراء أو غيرهما. وربما كان من أطرف الدراسات في هذا الموضوع الدراسة التجريبية التي قام بها كيلوج L.A. Kellog و كيلوج W.N. Kellog ويسراً فيها البيئة الإنسانية المتمدينة للشمبانزية الصغيرة جوا Gua منذ بلغت الشهر السابع من عمرها، وقدماً لها كل ما كانا يقدمان إلى طفلها من ضروريات المعاملة الإنسانية. لكنهما بعد أكثر من سنة لم يفلحوا في إكسابها كثيراً من جوانب السلوك الاجتماعي في صورته الإنسانية وأهمها اللغة (W.N. Kellog & L.A. Kellog. 1936)

Flexibility (١)

(٢) يروي هاييز وهاييز Hayes & Hayes وهما يعملان بمعامل يركيز Yerkes للبحوث

البيولوجية الخاصة بالكدييات العليا :

أنهما قاما باحضار شمبانزية صغيرة بعد ميلادها ببضعة أيام، وذلك في منزلها. ولم يكن مع الشمبانزية فيكي « Viki » أي طفل بشري لمدة ثلاثة أعوام. (يعكس الحال في تجربة كيلوج (W.N. Kellog). ومن أهم الملاحظات التي يقرها الباحثان :

كذلك لا يعنى هذا القول إمكان فهم التكامل الاجتماعى فى المستوى الإنسانى وتفسره فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للتكامل الاجتماعى فى المستويات تحت البشرية ، ولا فهم هذا الأخير فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للأول . وهذا بالضبط ما نعينه عندما نقول إن هذه الظاهرة تختلف اختلافاً كبيراً فى المستوى الإنسانى عنها فى المستويات السابقة عليه . وفى ذلك يقول نوفيكوف A.B. Novikoff : لكل مستوى من مستويات التنظيم خصائص بنائية وسلوكية فريدة ، تعتمد على خصائص العناصر التى تؤلفها ، لكنها لا تظهر إلا عندما تأتلف هذه العناصر فى النظام الجديد . والقوانين التى تصف الخصائص الفريدة لكل مستوى قوانين مختلفة اختلافاً كبيراً فيما بينها ويتطلب اكتشافها استخدام مناهج فى البحث والتحليل تلائم كل مستوى على حدة (G.J. Herrick 1949) هذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية بحيث تجب مراعاتها فى تفسيرنا للظواهر الاجتماعية من أعقدها إلى أقلها تعقيداً. فتطور المجتمع البشرى وأساليب الإنتاج وتقسيم العمل وصراع الطبقات واللغة والتعاطف والصدقة جميعاً لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى العمليات الداخلة فى بناء العش أو فى ظاهرة السيطرة أو التنبهات اللسبية المتبادلة ، بل لا بد من صياغة القوانين الاجتماعية أو السيكولوجية الاجتماعية الخاصة بها ، وابتكار المفاهيم الملائمة

أن الشبازية لم تكشف عن شيء من السلوك اللغوى الطبيعى أو بواده الأولى كما تبدو عند الطفل البشرى . ويقران أنها لم تمارس « المناغاة babbling » إلا إلى حد أقل بكثير مما يفعل الأطفال ، وحتى هذه المناغاة الضئيلة جداً اختفت تماماً عندما بلغت فىكى الشهر الخامس من عمرها . وهما يقران أنهما نجحا فى تعليمها أن تقول كلمات ثلاثة : « ماما mama » و « بابا papa » و « كوپ cup » . ولم تستخدم فىكى هذه الكلمات استخداماً صحيحاً فى البداية . ولكن عندما طالباها بذلك تعلمت أن تخاطب المحرب قائلة « ماما » أو « بابا » ، وأن تقول « كوپ » عندما تريد أن تشرب شيئاً . إلا أنها ظلت تخلط بين الكلمات من حين لآخر ، وخاصة عندما كانا يدفعانها إلى الكلام أو عندما تريد شيئاً ما بشدة . ويرى الباحثان أن عيب الكلام المائل عند فىكى يشبه ما رآه لدى الآدميين الذين يعانون من مرض الأفازيا (الحبة) نتيجة لإصابة فى الدماغ ، أكثر مما يشبه ذلك النوع من عيوب الكلام المائل لدى ضعاف العقول . (D. Katz 1953, P. 40)

لها. وسنجد أن هذه المفاهيم الاجتماعية وليست بيولوجية. ولا يختلف هذا الموقف عن موقف علماء البيولوجيا الذين يستحدثون المفاهيم الملائمة للظواهر البيولوجية مع التسليم بأن التحليل العميق لهذه الظواهر من شأنه أن يكشف عن اعتماد هذه الظواهر على عمليات كيميائية وفيزيائية. كذلك يضطر علماء النفس إلى صياغة المفاهيم الملائمة للظواهر السيكولوجية مع التسليم بأن هذه الظواهر في تحليلها العميق تقوم على عمليات بيولوجية. على أن معرفتنا بدقائق العمليات القائمة فيما بين ظواهر المادة غير الحية والمادة الحية، والقائمة فيما بين العمليات البيولوجية والعمليات السيكولوجية، والقائمة كذلك فيما بين التكامل الاجتماعي تحت البشرى والتكامل الاجتماعي البشرى لا تزال مليئة بالثغرات. وهذا أحد الأسباب الهامة في وجوب تخصيص مفاهيم مختلفة لتفسير ظواهر هذه المستويات المختلفة. وإلى أن يتقدم البحث حتى تُملأ هذه الثغرات يجب الاحتفاظ بهذا التمييز والحرص على إبرازه، وإلا كان علمنا مبسطاً بسيطاً مخلاً. وتدل عدة دلائل على أن التقدم العلمي صائر إلى هذا، فالكيمياء العضوية، والطب السيكوسوماتي حلقتان للاتصال، الأولى بين دراسة ظواهر المادة غير الحية ودراسة ظواهر المادة الحية، والثانية بين دراسة العمليات البيولوجية ودراسة العمليات السيكولوجية. ومن خلال الدراسات التطورية الحديثة ينتظر ظهور العلم الذي يمكنه أن يقوم بمهمة حلقة الاتصال بين دراسة التجمعات الحيوانية ودراسة الجماعات البشرية.

الفصل الثانى

نماذج للتجمعات تحت البشرية

النمل - الطيور - القردة العليا

أهم هذه التجمعات وأشدّها بروزاً من حيث درجة الاستقرار والتنظيم تجمعات بعض الحشرات والتدييات العليا .

١ - استرعت تجمعات النمل أكثر من غيرها اهتمام المشاهدين منذ أزمنة بعيدة ، وذلك فيما يبدو لتوفر هذين العنصرين - عنصرى الاستقرار والتنظيم - بدرجة كبيرة فيها . وكانت النتيجة أن رأى البعض فيها نماذج دقيقة للجماعة البشرية على نطاق صغير ، ولكن بصورة أشد إحصائياً بحيث يجب اعتبارها مثلاً يحتذى (H. Bergson 1932; A. Manhattan 1951) .

إلا أن الدراسات المقارنة الحديثة التى تقوم على دعامة قوية من المشاهدة الدقيقة بل والمحاولات التجريبية أحياناً (O.E. Plath 1935) تدل دلالة واضحة على أن هذا التصور ينطوى على خطأ أساسى ، فالتجمع الحشرى يقوم فى مستوى تكيفى أدنى بكثير من المستوى التكييفى الذى تقوم فيه الجماعة البشرية ، من حيث إن الارتقاء فى عمليات التكيف يمضى نحو زيادة اتساع نطاقها وتنوعها . (C.J. Herrick 1949) .

١ - يقوم تجمع النمل وحياة أبناء المسكن الواحد معاً فى سلام على أساس التكيف الكيمىائى مع المسكن . إذ يكتسب أبناء المسكن الواحد رائحة معينة تكون بالنسبة لهم عنوان العضوية الاجتماعية ، بحيث إذا اقتحمت نملة مسكننا غير مسكنها فإنها تهاجم من نمل هذا المسكن وتطرد أو تقتل حتى ولو كانت من نفس نوعه . ويلاحظ أن هذا التكيف الكيمىائى يستند إلى استعداد عضوى

لدى الأفراد ، هو الحساسية الشمية القوية . هذه العضوية الاجتماعية القائمة على أساس كيميائي هي الشرط الأول في التقارب والحياة معاً . ونستطيع أن ندرك مدى أهميتها إذا عرفنا أن بضع نمالات من أنواع مختلفة إذا جمعت ونشئت معاً في مسكن واحد منذ بدء طور اليرقة ^(١) فإنها عندما تكبر تعيش معاً ولا تتفرق تبعاً لأنواعها .

ويتدخل هذا التكيف الاجتماعي الكيميائي في تحديد سلوك أفراد النمل بشكل واضح ، ذلك أنهم عندما يندفعون خارج المسكن طلباً للقوت يكونون في حالة من التهييج يصحبها صدور إفرازات معينة من غدة في مؤخر الجسم ، وتسقط هذه الإفرازات على التربة ثم إذا بالنمل يحدد مجال نشاطه بمنطقة الأرض المشبعة بهذه الإفرازات ولا يتخطى حدودها ، إلا إذا اضطرت إلى ذلك عوامل معينة ، كالتنبيهات الليلية المتتالية ، إذ يترتب عليها تهييج الأفراد ، وعندئذ يفرزون الإفرازات على المنطقة الجديدة ثم تتحدد حركتهم بحدودها ^(٢) .

ب - وإلى جانب هذا التقارب الذي يقوم على أساس كيميائي ، نجد أن ما يبدو لبعض المشاهدين على أنه « تقسيم عمل اجتماعي » مناظر لتقسيم العمل الذي نعرفه في المستوى الإنساني ، ليس سوى تخصص مورفولوجي تمليه - إلى حد كبير - الخصائص العضوية للأفراد . وهذا ما انتهت إليه بحوث روش G.A. Rosch وإمرسون A.E. Emerson وجوتش W. Goetsch (T.C. Schneirla 1941) فيقرر روش أن وظائف أفراد النحل تتغير تغيراً أساسياً تبعاً لحدوث تغيرات عضوية هامة لديها . فتتحول الصغار من « دور الصغار العاجزين إلى دور « البنائين » عندما يتضاءل نشاط غددها البلعمية ^(٣) ويحل محله نشاط غددها الشمعية ،

larva (١)

(٢) يلاحظ أن هذا الوصف للتكيف الاجتماعي الكيماي عند النمل مبسط جداً . ويمكن

الاستزادة في هذا الصدد بالرجوع إلى :

Morley, D.W. *The Ant World*, London: Penguin Books, 1953.

pharyngeal glands (١)

وفي نهاية الأسبوع الثالث من عمرها يتضاءل نشاط غدها الشمعية فتتحول إلى الانطلاق في الحقل . ويثبت إمرسون مشاهدة بالغة الأهمية في هذا الصدد ، مؤداها أنه في بعض الحالات ينتاب أفراد النمل الأبيض الذى يعيش في المناطق الحارة tropical termites أكثر من تغير مورفولوجى ووظيفى في مرحلة واحدة من العمر ، فقد لوحظ أن بعض الأفراد تحولت من « فعلة » إلى « جنود » أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل من ذلك أهمية ، ولها نفس الدلالة ، ذلك أن كل نوع من أنواع النمل المعروفة لنا الآن— وهى تبلغ حوالى ٣٥ ألف نوع— يعيش معيشة ذات نمط معين ، مما يدل على توقف نمط التجمع على الخصائص العضوية إلى حد كبير (C.J. Herrick 1949) .

هذه الملاحظات تثير في الذهن ملاحظات مشابهة عن الحياة الاجتماعية في المستوى الإنسانى ، إذ أننا لا نستطيع أن ننكر وجود فوارق واضحة بين سلوك الطفل وسلوك المراهق وسلوك الراشد ، كما أننا لا نستطيع أن ننكر أهمية عامل النمو العضوى في ظهور كل من هذه الضروب الثلاثة من السلوك ، إلا أن هذا التشابه تشابه شكلى يخفى في طبياته اختلافاً حاسماً من حيث درجة اعتماد نمط السلوك على العوامل العضوية ، فسلوك الطفل يمكن أن يتشكل دون أن يتوقف ذلك على تغيرات فيزيولوجية أو مورفولوجية واضحة وكذلك سلوك المراهق وسلوك الراشد ، مما يدل على درجة فائقة من المطاوعة في السلوك البشرى لا تتوفر في ساوك الحشرات (M.F.A. Montagn 1947) فليس ثمة إذاً في مستوى الحشرات تقسيم اجتماعى للعمل ، ولكن هناك تخصص عضوى . ويتضح الفرق بين الاثنين إذا عرفنا أن الأول ينطوى على المرونة بينما ينطوى الثانى على التصلب ، وأن الأول يقوم أولاً وقبل كل شئ على عمليات اجتماعية معينة يشار إليها بعمليات الإدماج الاجتماعى أو التطبيع^(١) بينما يقوم الثانى على

أصول عضوية أولاً وقبل كل شيء (C.J. Herrick 1949; T. C. Schneirla 1941)

جـ - وتكتمل الجوانب الرئيسية للصورة التي نرسمها لأنفسنا عن تجمع النمل عندما نعرف حقيقة الصلة بين أفراد المسكن الواحد. فثمة تفاعل بين الأفراد لا يمكن إنكاره وإلا عجزنا عن تفسير الكثير من سلوكه. إلا أن هذا التفاعل محصور في نطاق ضيق جداً، إذ يعتمد أساساً على التنبهات اللمسية المتبادلة بين الأفراد بواسطة قرون الاستشعار^(١)، وهذه اللمسات المتبادلة إن هي إلا أفعال منعكسة شرطية قامت كامتداد للأفعال المنعكسة التي تصدر عن صغار النمل وهي بعد في طور البرقة طلباً للقوت، إذ أن هذه الصغار تكون في حالة جوع شبه دائم ويصحب ذلك اهتزاز شديد في قرون استشعارها، فإذا ما اقترب منها النمل اليافع وتعرض لللمسات من هذه القرون خرجت من حوصلته كمية من الطعام وسقطت في أفواه الصغار، وهذا من شأنه أن يثبت في الصغار عملية اهتزاز القرون فتظل معها حتى اليقاع. ويطلق هويلر W.M. Wheeler على هذه العملية اسم trophallaxis ومن الواضح أن التقارب الاجتماعي الذي ينتظم من خلال هذه العملية يقوم على أساس أن « الآخر مصدر للطعام ». ولسنا بصدد لغة ولا رموز لنقل الأخبار كما كان فازمان E. Wasmann وغيره يقررون (T. C. Schneirla 1941).

ومن الأدلة كذلك على تصلب سلوك الحشرات الاجتماعي ما نلاحظه على إناث حشرة الأذن ذات المقص^(٢) في سلوكها نحو أفرانها؛ إذ تضع البيض وترقد عليه، ثم تعلقه من حين لآخر، وبذلك تساعد اليرقات على الظهور. إلا أن بعض اليرقات تكون في حاجة إلى من يخلصها من بقية قشرة البيضة، فلا تجد هذه المساعدة من الأم. وقد تهلك هذه اليرقات دون أن تلقى أي عون

antennae (١)

earwig (٢)

د- هذه هي الجوانب الثلاث الكبرى للحياة الاجتماعية لدى النمل ؛ تقارب يقوم على أساس كيميائي ، ووظيفة اجتماعية تقوم أولاً على أساس فيزيولوجي ، وتفاعل يقوم على أساس لمسي . ومن الواضح أنها تتكاتف جميعاً على توفير نمط من التكيف يمتاز بالضيق والتصلب أو التحجر ، مما يجعله قليل الكفاءة إزاء مقتضيات البيئة . ولذلك يهلك النمل بأعداد هائلة ، ولا يعوض ذلك إلا خصوصته الشديدة في التناسل .

وهذا الذي نقرره عن انخفاض المستوى التطوري للتكامل الاجتماعي لدى النمل يتفق تماماً مع ما هو معلوم عن مستوى التطور البيولوجي الذي يشغله . فهو تابع لرتبة ^(١) الحشرات الداخلة في قبيل ^(٢) الحيوانات المفصلية ^(٣) . وأهم ما يميز هذا القبيل ضيق نطاق الحركات التكوينية لأفرادها- من مختلف الرتب - القيام بها ، نتيجة لمورفولوجيتها ؛ فأجسامها وأطرافها مقسمة إلى عدد من الأجزاء المغطاة بقشرة صلبة (كيوثينية) مقسمة هي الأخرى إلى أجزاء تكاد تكون مناظرة للأجزاء اللحمية ، وتصل بينها مفاصل لا تتيح الحركة إلا في حدود زوايا محددة ضيقة (J.Huxly & others, 1938p.206) أضف إلى ذلك ما هو معلوم من ضآلة عدد خلاياها العصبية ، مما يترتب عليه ضآلة عدد الارتباطات العصبية (الوظيفة) التي لا بد منها لقيام الاكتساب المفصل وبالتالي لقيام السلوك المرن . ومن الجدير بالذكر أن الحشرات كرتبة توضع في مستوى منخفض عن الثدييات . ويقدر علماء التطور أنها ظهرت قبل الثدييات بحوالى ١٥٠ مليون سنة (C.J. Herrick 1949) .

٢- فإذا انتقلنا إلى تجمعات الطيور وجدنا عنصري الاستقرار والتنظيم مائلين ولكن بصورة أضعف وأشد خفوتاً من تلك التي يتمثلان بها في تجمعات النمل . فالاستقرار - في حالة التجمعات الكبيرة - استقرار موسمي يظل قائماً طوال موسم عدم الإخصاب . فإذا ما نشطت الحوافز التناسلية تفكك التجمع

الكبير إلى تجمعات صغيرة متباعدة^(١) . ولذلك يسهل على الأفراد الذين يحاولون أن ينضموا إلى التجمع أن ينجحوا في محاولتهم في ذلك الموسم . في حين أنهم إذا حاولوا ذلك في وقت آخر قوبلوا بالعدوان والهجوم من الجميع (H. Friedman 1935) وليس للتنظيم تلك الصرامة التي يمتاز بها في تجمعات النمل . وأهم ما يوضح ذلك أنه لا وجود لظاهرة الطوائف (ذات الأعمال الخاصة والبناء العضوي الخاص) التي هي قوام تجمعات النمل . ومع أن نظام السيطرة (نظام النقر^(٢)) - وهو أوضح مظاهر التنظيم في تجمعات الطيور - يبدو على درجة عالية من الثبات وثقل الوطأة، فإنه لا يبلغ في صرامته مبلغ نظام الطوائف في تجمعات النمل لسبب بسيط ، هو أنه - أي نظام النقر - لا يتوقف على الخصائص الجسدية وحدها لدى الأفراد ؛ فعامل القوة الفردية والحجم يعتبر فقط من بين العوامل الهامة الداخلة في تحديد المسيطر والخاضع ، لكنه ليس العامل الأوحد ، والدليل على ذلك ما نلاحظه من أن انتظام نظام النقر أو السيطرة لا يكون في خط مستقيم صاعد ، بحيث يكون المسيطراً على ب ، وب مسيطراً على ج ، وج مسيطراً على د ... إلخ ، وفي النهاية يكون المسيطراً على الجميع وب مسيطراً على الجميع إلا واحداً ، وهكذا ، بل نجد أنه ينتظم في شكل دائري غالباً . فالطائر ا يسيطر على ب ، وب يسيطر على ج ، وج يسيطر على ا . ولو كان عامل القوة الجسدية أو الحجم هو وحده العامل المحدد لألفينا ا مسيطراً على ج (T. Schjelderup-Ebbe 1935) .

وكما انتشرت بعض الآراء التشبيهية^(٣) حول إنسانية الحياة في تجمعات النمل ، كذلك انتشرت آراء مماثلة حول إنسانية الحياة في تجمعات الطيور ؛ فنسب التعاون إلى أعضائها اليافعين ، ولا سيما فيما يتعلق بالدفاع عن كيان الجماعة ضد

(١) يتحقق ذلك في حالة الطيور التي تتغذى في مكان وتتناسل في مكان آخر ، أما الطيور التي تتغذى وتتناسل في مكان واحد فإنها تظل في الغالب على شكل تجمعات صغيرة متباعدة ولا تكون تجمعات كبيرة .

تدخل الغرباء ، كما نُسبت إلى هؤلاء الأفراد مشاعر الرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة، ونُسبت إليها مشاعر الصداقة أيضاً . كذلك قيل بوجود تنظيمات جماعية لتربية الصغار ، وغير ذلك من الصفات التي تجسمها الخيلة النشطة ولا يشهد بصدقها التحقيق العلمي الدقيق ؛ فما ظن أنه تعاون بين اليافعين على طرد الطيور الغريبة التي تحاول أن تنضم إلى القطيع ليس في واقع الأمر تعاوناً ، بل هو اندفاع من كل فرد على حدة إلى مهاجمة الغريب دفاعاً عن نفسه هو ، ويقول شلدرب إبه (T. Shjelderup Ebbe 1935) إن ما خدع البعض في هذه الظاهرة هو ما يبدو من تشابه بين حركات المدافعين بحيث ظن أن هذا التشابه ضرب من التآزر المدبّر ، وهذا غير صحيح ، وحقيقته أنه تشابه يمليه ضيق نطاق الحركات التكوينية لدى الأفراد . وما ظن أنه شعور بالرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة ليس كذلك في الواقع بل أقصى ما يمكن أن يقال فيه إنه إحساس غامض بأذى لحق بجزء من الوحدة التجمعية (H. Friedman 1935) شأنه في ذلك شأن أى تغير يلحق بيئة الطائر ، فإنه يثير لديه مظاهر الحصر الواضحة . وكلما اشتد بروز هذا التغير كانت مظاهر الحصر أشد وضوحاً لدى الطائر . وما ظن أنه من قبيل مشاعر الصداقة تأويل غير دقيق لمظاهر التقارب الهادئ بين بعض الأفراد ، وحقيقته أن دوافع العدوان والسيطرة لدى الذكور العدوانيين أو الإناث العدوانيات تخفت وتتضاءل كلما تيقظت الحوافز الجنسية ، ونتيجة لذلك يرافق الذكر أثناءه دون عدوان ، فإذا ما خمدت هذه الحوافز عاد كل إلى سابق سيطرته أو خضوعه (T. Schjelderup-Ebbe 1935) ويندر أن نلاحظ تقارباً هادئاً بين فردين من نفس الشق^(١) (ذكرين أو أنثيين) داخل التجمع ، اللهم إلا عندما يسود الظلام فيتعذر على الطائر أن يرى الآخرين ، ولما كان تكيفه يعتمد أساساً على حاسة الإبصار فإنه يتخذ موقفاً سلبياً ليس فيه

عدوان ولا فرار . كذلك ما يقال عن التنظيم الجماعي لتربية الصغار ، فالواقع أن كل طائر يطعم أفراده هو ولاشأن له بأفراخ الآخرين . ولذلك فالأفراخ التي يموت أبواها أو يختفيان لسبب ما يكون نصيبها الموت جوعاً (H. Friedman 1935) .

من ذلك يتضح أن تجمعات الطيور تحمل في نفسها بذور التقارب والتفاعل الاجتماعيين . إلا أن هذه البذور لا ترقى أبداً إلى المستوى الإنساني . إنها تقف في السلم التطوري في مرتبة أعلى من مرتبة تجمعات النمل ، وذلك على أساس ازدياد عدد المجالات الطبيعية التي تستطيع أن تتكيف معها ، وازدياد مرونة هذا التكيف . لكنها إذا قورنت بالمجتمع الإنساني بدت مع ذلك شديدة التصلب ضيقة نطاق التكيف ، ومن ثم فهي دون المستوى الإنساني بكثير . فليس للعلاقات بين الأفراد سوى عدد ضئيل جداً من الأنماط ، فإما تقارب تناسلي وإما سيطرة وخضوع . والنسبة بين هذين وبين عدد الأنماط التي يمكن أن تنتظم فيها علاقات أفراد المجتمع الإنساني فيما بينهم لا تكاد تذكر . وربما كان من أهم العوائق السيكولوجية التي تحول دون تحقيق مثل هذا العدد الهائل من أنماط العلاقات الإنسانية في تجمعات الطيور عدم وجود اللغة كأداة للتكيف الاجتماعي . أما يقال عن وجود بعض مظاهر اللغة عند بعض الطيور فلا يثبت أمام التحقيق العلمي الدقيق . اللغة هي الأداة الرئيسية التي أمكن بواسطتها تحقيق هذا العدد الهائل من الأنماط في العلاقات الاجتماعية بين الناس . ويمكن اعتبار العجز اللغوي لدى الأطفال فيما قبل السنة الرابعة من العمر أحد الأسباب الرئيسية في عجزهم عن الانضمام إلى جماعات اللعب التي تتألف من أطفال يماثلونهم في السن أو يكبرونهم قليلاً . كذلك من أهم أسباب هذا الفقر في إمكانيات تعدد العلاقات الاجتماعية بين أفراد تجمع الطيور ارتباط سلوكها الاجتماعي ارتباطاً واضحاً بخصائصها العضوية . حقاً إن هذا الارتباط يبدو واهناً إذا قورن بارتباط سلوك النمل بخصائصه العضوية لكنه مع ذلك يبدو وثيقاً إذا قورن بالسلوك الإنساني ومدى اعتماده على

الخصائص العضوية للفرد .

فهجرة بعض الطيور (شمالاً في الربيع وجنوباً في الخريف) تتوقف بشكل واضح على حدوث تغيرات فيزيولوجية معينة في الطائر ، إذ تنشط غدده التناسلية (نتيجة لتزايد كمية الضوء في الربيع) ويتبع ذلك ازدياد حساسية الطائر للحرارة ، مما يدفعه إلى الهجرة شمالاً حيث يجد مناطق أقل استضاءة وأقل حرارة. ويحدث عكس ذلك في الخريف (W. Rowan & L. Roule 1938) كذلك يلاحظ أن استقرار علاقات السيطرة والخضوع بين أفراد التجمع يتوقف على عوامل عضوية معينة . فإذا ثارت الحوافز التناسلية مثلاً خمدت دوافع العدوان والسيطرة . وإذا حدثت تغيرات جسمية واضحة لدى الأفراد تخلخل النمط السائد وبدأت المنازعات لتقرير نمط جديد . وكثيراً ما تحدث هذه التغيرات الجسمية بالنمو أو بتغير فصول السنة أو بالمرض (T. Schjelderup-Ebbe 1935) . وإذا كان هذا الفقر الشديد في تنظيم العلاقات الاجتماعية في تجمعات الطير مما يسرعى انتباهنا فإن عدم الاستقرار يسرعى انتباهنا كذلك . ولهذا عدة أسباب ، نجتزئ منها بذكر سبب سيكولوجي على جانب كبير من الأهمية ، وهو ضعف الذاكرة لدى الطيور ضعفاً شديداً جداً إذا قورنت بما هي عليه في الإنسان . فبينما تصل قدرة الإنسان إلى درجة التعرف على الآخرين بعد انقضاء عدة سنوات منذ مفارقتهم حتى ولو كانوا صغاراً وأدخل النمو عليهم عدة تغيرات في الحجم والشكل ، نجد أنه تكفي التفرقة بين طائرين يافعين من (نفس النوع) لمدة أسبوعين حتى يجهل كل منهما الآخر جهلاً تاماً . أما في حالة التفرقة بين الكبار والصغار فيكفي أن نفرق بين الطائر وأفراخه لمدة أسبوع واحد حتى يجهلها ولا يتعرف عليها بعد ذلك (وذلك بسبب كف بعض الغدد الصماء وتنشيط غيرها) ، حتى ولو تعرفت الصغار عليه (T. Schjelderup-Ebbe 1935) ولا جدال في أن نمط التكامل الاجتماعي الإنساني بما له من تعقد وتشعب ، وما يقتضيه من تباعد بين الأفراد ليعودوا إلى التقارب من جديد في مستوى أثيرى

وأعلى مما كان عليه (كتباعد الأبناء عن الآباء في ذهابهم إلى المدرسة وفي رحلاتهم العلمية ، وكتباعد الفتى عن الفتاة التي يحبها ليعود إليها بعد أن يحصل على مكانة اجتماعية مرموقة ، و . . . إلخ) ليتطلب ضمن شروطه السيكولوجية ذاكرة أقوى من ذلك بكثير . كذلك اتساق^(١) الدور الاجتماعي^(٢) الذي تقوم به الشخصية — وهو السائد لدى الأسوياء — يتطلب هو الآخر ذاكرة قوية تكون تعبيراً عن وحدة الشخصية في الزمان ودعامتها لها . (ى . مراد ١٩٤٧) . ولا شك أننا نعجز عن التماس نظير هذا الاتساق في جماعات الطير ، نظراً لشدة تأثير التغيرات العضوية في السلوك . وهذا سبب آخر من أسباب عدم الاستقرار . على أننا إذا نظرنا إلى سلوك الطير الاجتماعي من زاوية ثالثة وهي زاوية تأثيره المباشر بمؤثرات البيئة الطبيعية ، أمكن لنا أن نرى في ذلك مظهراً آخر من مظاهر عدم الاستقرار ، الذي يرجع في النهاية — إذا ما قورن بالسلوك الاجتماعي لدى الإنسان — إلى ضيق نطاق القدرة على الاكتساب ، وهي التي تصل في نموها لدى الإنسان إلى تلك الدرجة الفائقة التي تمكنه من استيعاب تراث الأجيال السابقة الفكرى والمادى ليكون منه البناء الحضارى الذى يقوم كهيئة تتوسط بينه وبين البيئة الطبيعية ويكون لها الأولوية غالباً في التأثير عليه ، فتدخل الاتصال والاتساق على تاريخه .

والخلاصة أن تجمعات الطير تقوم دليلاً واضحاً على أن جذور التكامل الاجتماعي تمتد في المادة الحية إلى مستويات أدنى بكثير من المستوى الإنسانى . فثمة استقرار وتنظيم داخل وحدة اجتماعية لها حدودها الواضحة (على الأقل في موسم التجمع) ، بحيث يبدو أن لها درجة معينة من الانفلاق تتجلى في مهاجمة الجميع للقادم الغريب . إلا أن هذا التكامل ذو نمط أدنى بكثير من نمط التكامل في المستوى الإنسانى . ومعيار الانخفاض والارتفاع هو كما أسلفنا القول مدى كفاية السلوك لتحقيق تكييف ناجح (T.C. Schneirla 1941) ومن تحليلنا

للأسس التي يقوم عليها هذا التكامل نستطيع أن نضع الفروض الثابتة لتعيين أسس التكامل الاجتماعي في المستوى الإنساني. ومن الواضح أننا إذا أردنا أن نلتزم هذه الأسس فيجب أن نلتزمها في سيكولوجية اللغة والذاكرة والاكتساب والاستقلال النسبي لسلوك الشخصية عن التغيرات العضوية التي تتأثر بها (M.F.A. Montagu 1947).

وإذا ألقينا بنظرة سريعة على الأسس العصبية لهذا السلوك الذي يمتاز بالصلابة وضيق نطاق التكيف (إذا قورن بسلوك الإنسان) ، ألقينا أن الشيء الرئيسي في الجهاز العصبي لدى الطيور هو تضخم الجسم المخطط^(١) بحيث يبدو أنه الجزء الرئيسي بين أجزاء المخ ، في حين أن اللحاء^(٢) يبدو ضئيلاً جداً . ولما كان الجسم المخطط هو مركز تنسيق الحركات المتأخرة (J.F. Foulton 1945) فإن سلوك الطير لا يمكن إلا أن يكون سلوكاً يغلب عليه التحجر مع عجز واضح عن التكيف الذكي إذا ما قورن بسلوك الثدييات بوجه عام ؛ إذ أن هذا الأخير يستند إلى دماغ، يضم جسماً مخططاً ضئيلاً بالنسبة إلى اللحاء الذي يأخذ في النمو حتى يصل إلى هذا الحجم الهائل الذي يبلغه في الإنسان . ويقول هكسلي J. Huxley إن من أهم الفوارق بين سلوك الطيور وبين سلوك الثدييات بوجه عام تفوق الذكاء والذاكرة وسرعة الاكتساب لدى الأخيرة .

أضف إلى ذلك ما تنبئ به الملاحظة العابرة من شدة تخصص أعضاء الطائر (الجنائحين مثلاً) إذا ما قورنت ببعض أعضاء الإنسان (اليديين مثلاً). فإن هذا التخصص الشديد يقلل من قدراتها التكيفية . ويمكن اعتبار جسم الطائر بوجه عام متحجر النمط^(٣) إلى حد كبير ، وينعكس أثر ذلك في سلوكه بشكل ملحوظ (J. Huxley & H.G. Wells 1938) وهنا يلزمنا أن نثبت ملحوظة جلدسون هريك إذ يقول : من الجدير بالذكر أن أجسام الطيور متخصصة بشكل يفوق كثيراً أجسام الثدييات . والطيور بوجه عام ناجحة جداً كنجاح الحشرات ، وتعتمد على أنماط السلوك الوراثية الجاهدة . ولا يمكن إنكار

أن الطيور أذكى من النمل ، وأن حياتها أثرى من حياة النمل ، وخبراتها أكثر تنوعاً ، لأنها ذات استعدادات وراثية للتكيف مع بيئة تفوق في تعقدها بيئة النمل . والطيور كرتبة تتكيف مع أنواع مختلفة من البيئة . إلا أن الطائر الفرد ليس شديد القابلية للتكيف ، كما أن قدرته على الاكتساب أضعف بكثير من قدرة الثدييات العليا . وقد انتهج تطور الثدييات اتجاهها مخالفاً ، أهم ما يميزه ازدياد قدرة الفرد على التكيف والتعلم ، لا مجرد ازدياد تنوع فصائل الرتبة ، كما في الطيور (C.J. Herrick 1949) .

٣- ولنتنقل الآن إلى تجمعات القردة العليا ، ولا سيما الشمبانزية . وسوف نقف عندها وقفة أكثر تدقيقاً وتفصيلاً من وقفينا السابقتين عند تجمعات الحشرات والطيور ، وذلك لشدة ارتقائها إذا ما قورنت بالنظيرين السابقين ، ولكثرة أوجه الشبه (التي يتبينها المشاهد العابر) بين سلوك هذه الحيوانات وسلوك الإنسان . فكل من قصد إلى حدائق الحيوان أو أتيح له أن يشهد هذه الحيوانات في بيئتها الطبيعية لاشك فوجئ بالمظهر الشبيه بالإنسانى الذى لا يمكن إنكاره لكثير من جوانب السلوك لدى هذه الحيوانات . فهى تكثر من استخدام اليدين بطريقة شبه إنسانية ، وبدلاً من أن تمد فيها إلى الطعام كسائر الثدييات (القطط والكلاب . . إلخ) تتناول الطعام بيديها وترفعه إلى فمها . هنا إلى أنها تقوم بالكثير مما يدل على ذكاء عال وقدرة على المحاكاة لا نشهدها في سائر مستويات الحيوان . على أن مظاهر السلوك الاجتماعى هى من أبرز ما يفجأنا في سلوك هذه الحيوانات . فمعظمنا قد شهد (في جبلية البابون في حدائق الحيوان) بعض الإناث تساعد صغارها على التعلق ببطونها أو على امتطاء ظهورها ، أو بعض الذكور تحمى صغارها وإناثها ضد محاولات الاقتراب التى يقوم بها ذكور آخرون ، أو بعض الصغار تلعب مع البعض ، أو بعض الإناث والصغار تتحرك في ركاب الذكر ، كأنهم أعضاء أسرة أبوية^(١) .

بل إن من يحاول الإيمان في أحوال معيشة تلك القردة - زيادة على مجرد المشاهدة العابرة - لا يلبث أن يشهد ضرورياً من السلوك الاجتماعي أعقد من ذلك بكثير ، كاتقسام الرهط إلى عدة وحدات صغرى أسرية ذات نمط ثابت هو النمط البوليجيني (ذكر واحد وعدة إناث) ، واستمرار التقارب المكاني بين أعضاء الأسرة الواحدة ، والمشاجرات التي تنشب أحياناً بين بعض الإناث اللاتي يتألف منهن حريم الذكر ، وهكذا .

هذه المشاهدات وغيرها - مما يكشف عن شدة اجتماعية القردة العليا - هي التي تحفزنا إلى الاهتمام بنمط حياتها . فالمسافة بين هذا النمط وبين نمط الحياة الإنسانية قصيرة إذا ما قورنت بالمسافة بين هذا الأخير وبين نمط حياة الحشرات أو الطيور . فهي تمثل مرحلة هامة من مراحل ارتقاء الاستجابات الاجتماعية في السلسلة الحيوانية . وهي المراحل المائلة أمامنا إلى المرحلة الإنسانية . وفي ذلك تنحصر أهميتها . فسبر أعماقها مع المقارنة الدائمة بينها وبين المرحلة الإنسانية من شأنه أن يكشف لنا بوضوح عن أسس التكامل الاجتماعي الإنساني من حيث إنه تكامل فريد في نوعه . ومن هنا كان يركيز R. Yerkes يقول : إننا نرى أن لهذه اليحوث في حياة الثدييات العليا أهمية كبرى في حل كثير من مشكلات الإنسانية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

والسؤال الآن هو : ما هي الصفات التي تضع نمط التكامل الاجتماعي لدى القردة العليا في مستوى أرقى من مستوى تجمعات الحشرات والطيور ؟
يمكن تلخيص هذه الصفات فيما يلي :

- ١ - ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعي بشكل واضح .
- ب - ازدياد تحرر السلوك من وطأة الحتمية العضوية (المورفولوجية ، أو الفيزيولوجية) .
- ج - ازدياد قدرة الذاكرة .
- د - نمو الخيال المبدع .

هـ - اتساع نطاق التعبيرات الصوتية .

و - بروز القدرة على المحاكاة .

وفيما يلي بعض الظواهر السلوكية التي توضح هذه الصفات :

١ - فأما عن ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعي فأبرز ما يوضح ذلك طول مدة الحضانة وشدة تعقد الصلة بين صغار الشمبانزيه وكبارها . ذلك أن الوليد الشمبانزي يكون عند ولادته شديد الشبه بالوليد الإنساني من حيث عجزه عجزاً شديداً عن أن يسعى إلى إشباع حاجاته بنفسه ، حتى إنه إذا ترك وشأنه فإنه يهلك . ولذلك فهو يتعلق ببطن أمه ويبدأ الرضاعة بعد ولادته ببضع ساعات . ويظل على هذه الحال مدة تبلغ حوالي الثمانية أسابيع ، وتكرس الأم لرعايته معظم وقتها وجهدها . وفي أواخر الشهر الثاني تبدأ محاولات الصغير القيام بالحركة المستقلة ، وتمنع الأم هذه المحاولات في بدايتها كما تمنع محاولاته أن يتناول أى طعام إلا من أئدائها . ولكن محاولات الصغير الاستقلالية تزداد إلحاحاً بازدياد نموه ، وتبعاً لذلك يتغير سلوك الأم ، فإذا بها تشجع هذه المحاولات وتيسرها بطرق معقدة أمكن تسجيلها بالتصوير السينماتوجرافي . وفي النصف الثاني من السنة الأولى يترك التعلق ببطن أمه ليمتطي ظهرها . وفي نهاية السنة الأولى يصير قادراً على الحركة المستقلة ، لكنه مع ذلك يظل عاجزاً عن إشباع الكثير من حاجاته بنفسه ولا سيما حاجته إلى الطعام ، ولذلك فإنه يظل يرضع من ثدي أمه لبضع شهور بعد ذلك . وبعد انقطاعه عن الرضاعة لاتنقطع صلته بأمه ، بل يظل معتمداً عليها - اعتماداً جزئياً - حتى سن الثلاث السنوات تقريباً . وتظل هي دائمة العناية به ، تغذيه وتحميه وتوجهه وتعلمه . وهنا يقول يركيز R. Yerkes : يجب ألا ننظر من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب في هذا الصدد لمجرد أننا هنا في مستوى دون المستوى الإنساني ، بل يجب أن نستخدم هذه الكلمات ، لأن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزي تقصد فعلاً إلى تشجيع وليدها ، ومساعدته على الاستقلال الحركي ، من

مشى وتسلق وجرى. بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم فترة من الوقت أثناء السنة الأولى من العمر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) ولهذه الملاحظة الأخيرة التي يبيدها يركيز دلالة هامة ، إذ أن العلاقة بين الصغار والكبار تبلغ لدى الشمبانزية طولاً وتعقداً لا تبلغهما في أى مستوى آخر تحت المستوى البشرى ، حتى ولا في سائر أنواع القردة العليا ، كالبابون والنسانيس النابجة . ولذلك يقرر يركيز (1935) في موضع آخر أن العلاقة بين الصغير وأبويه تزداد بتداء من الليمور حتى الشمبانزى من حيث المقدار والتنوع كما أنها تصبح ذات طابع تربوي أكثر فأكثر ، بعد أن كانت تقتصر (لدى سائر الثدييات) على تقديم الغذاء والحماية وبعض الخدمات الصحية اللازمة لبقاء الصغار . فإذا اعتبرنا طول مدة اعتماد الصغار على الكبار ، وازدياد تنوع العلاقة بين الجيلين دالين لشدة مطاوعة الوليد وقابليته للتشكل ، وأدخلنا في حسابنا تلك الحقيقة الهامة وهي أن تجمعات الشمبانزية (التجمعات الأسرية) ثابتة مستقرة وليست عابرة ولا موسمية ، استطعنا أن ندرك مدى أهمية الجماعة في تشكيل سلوك الفرد لدى الشمبانزية ، أو بعبارة أخرى مدى اجتماعية الفرد ، وهو مالا نجد في حالة الطيور والحشرات بوجه عام ، إذ يتحدد معظم سلوك هاتين الفئتين على أساس عوامل عضوية وعوامل البيئة الفيزيائية للكائن ، وأما نصيب الاكتساب من الآخرين (من أفراد النوع) فضئيل نسبياً .

وتتفق هذه الحقيقة التي انتبهنا إليها عن شدة اجتماعية الشمبانزى مع عدة حقائق أخرى نعرفها عن نمط حياته . وأول هذه الحقائق شدة تأثير المنبهات الاجتماعية على الفرد ، وازدياد ميل الفرد إلى محاكاة الآخرين وقدرته على المحاكاة الدقيقة . ومن المظاهر الدالة على شدة تأثير المنبهات الاجتماعية بقفلة الدافع الجنسي عند البعض حال مشاهدتهم أحد الأفراد يمارس العملية الجنسية أو يتأهب للقيام بها . ومن المظاهر الدالة على قوة المحاكاة ما يظهر أفراد التجمع من ميل إلى محاكاة الفرد الزعيم في جميع حركاته أثناء قيادته للتجمع ، وما تدل

عليه بعض التجارب من إمكان تعويد الشمبانزى استخدام بعض الآلات ، وذلك بإعطائها المثل الاجتماعي على ذلك (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية وهي ظاهرة الحنين إلى الجماعة التي تكشف عن مدى ارتباط الفرد بها . وفي ذلك يقول W. Kohler الواقع أن روابط الجماعة لدى الشمبانزى تقوم كقوة حقيقية . ويبدو ذلك بوضوح عندما نحاول أن نبعد أحد الأفراد عن جماعته . فإذا لم يكن هذا الفرد قد مر بمثل هذه الخبرة من قبل فإن رغبته الأولى والكبرى عندئذ تكون في العودة إلى جماعته . وإذا كان صغيراً جداً فإن هذا الإبعاد يفزعه ، (بل إن الأمر ليؤثر في كيمياء جسمه فيمرض وقد يموت) ، ويتجلى فزعه لدرجة أن المرء لا يكاد يقوى على استمرار إبعاده . أما الكبار فإنهم لا يبذلون الفزع ، لكنهم يصيحون ويصبون غضبهم على جدران حجراتهم ، ويرفضون الطعام إذا قدم لهم ، وإذا ما لاح لهم طريق للعودة إلى جماعتهم فإنهم يخاطرون بحياتهم لكي يعودوا إليها . فإذا ما عاد الفرد المفقود إلى الجماعة فإنه يقع في إعصار من الفرح (W. Kohler 1931) ويؤكد كهلر اجتماعية الشمبانزى بقوله : ليس من المبالغة في شيء أن نقول إن الشمبانزى الذى يعزل بعيداً عن أقرانه لا يمكن أن يكون شمانزياً حقيقياً ، ذلك أن بعض الحاصل المميزة لهذا النوع من الحيوان لا تظهر إلا عندما يكون في جماعة . ويرجع ذلك إلى أن سلوك أقران كل شمانزى يكون بالنسبة له الباعث الملائم الأوحده لإصدار تشكيلة كبيرة من الأساليب الرئيسية للسلوك . وعلى ذلك فالكثير من هذه الحاصل لن يفهم بوضوح إلا إذا أدخلنا في اعتبارنا سلوك أفراد الجماعة وأرجاعهم ككل .

ب - أضف إلى ذلك تلك الحقيقة الهامة ، ألا وهي قوة الذاكرة . وقد رأينا في حديثنا عن الطيور أن بوادر الذاكرة متوفرة لديها ، لكنها ضعيفة جداً . أما في حالة الشمبانزى فالذاكرة تبلغ درجة من القوة تفوق ذلك بكثير ، بل وتفوق ما هو متوفر لدى الثدييات الدنيا بشكل واضح . وتشهد بذلك ملاحظات

الباحثين المدققين . فكهلر يروى أن الشمبانزية تعرفت عليه بعد مفارقتها لها مدة ستة شهور ، وأنها تعرفت على زميلها « سلطان » بعد مفارقتها لها لمدة أربعة شهور . ويقرر يركيز أن الشمبانزى يستطيع أن يتذكر الأشخاص بعد سنة من مفارقتها لهم بحيث يستجيب لهم استجابة ملائمة . ويرون هيك L. Heck أن شمبانزياً تذكر بالفعل أحد الأشخاص بعد سنة من مفارقتها، وتذكر ديباً كان يلعب معه بعد عدة شهور (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد أجريت هذا الصدد عدة تجارب روى الكثير منها كهلر ويركيز . وخلصتها أن اختفاء الشيء عن نظر القط يجعله بعيداً عن فكره . بمعنى أننا إذا أخفينا طعاماً مثلاً عن نظر القط ، وقمنا بعملية الإخفاء على مرأى منه فإنه لا يلبث أن ينساه ولا يقوم بأية محاولة للحصول عليه . أما الشمبانزى فإنه إذا شاهدنا نخفي طعاماً ظل يتذكره لفترة من الزمن يقدرها يركيز بثمانية وأربعين ساعة . وتؤثر عمليات التذكر هذه في نشاطه بصورة ملموسة بحيث نجده يسعى إلى التنقيب عن الطعام والحصول عليه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد روى كهلر تجربة مماثلة أجراها على الشمبانزى « سلطان » ؛ فأخفى فاكهة في الرمل أما عيني الشمبانزى وكان ذلك في المساء . وبعد أن مضى على ذلك ست عشرة ساعة ونصف الساعة (قضى الشمبانزى معظمها في النوم) قام وبحث عنها وأمكنه العثور عليها، وكانت تبدو عليه جميع دلائل التذكر (W. Kohler 1931). بل إن بعض التجارب لتكشف عن درجة فائقة من الدقة في عمليات التذكر هذه . فقد تبين أننا إذا أخفينا الطعام في صندوق ذى لون معين ووضعنا هذا الصندوق وسط مجموعة من الصناديق المماثلة في الحجم والشكل مع اختلاف في اللون فإن الشمبانزى يستطيع أن يميز الصندوق المحتوى على الطعام من بين بقية الصناديق بعد نصف ساعة من إخفاء الطعام فيه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وهنا نجد لزماً علينا أن نستبعد فرضاً معيناً قد يقوم لتفسير هذه التجارب غير القول بأنها تعتمد على قوة الذاكرة ودقتها . ونقصد هنا افتراض أن الحيوان يتجه

إلى الطعام تحت تأثير رائحته ، فهذا غير صحيح . ولدحض هذا الفرض يمكن أن نقوم بإخفاء الطعام في صناديق تغطيها طبقة من الشمع تمنع انتشار رائحته ، ومع ذلك فس نجد الشمبانزية تعثر عليه . ومن ناحية أخرى يمكننا أن نقوم بإخفاء الطعام (مع السماح لرائحته بالانتشار) دون أن ترانا الشمبانزية ثم نطلقها في مجاله ، فس نجد أنها لا تستطيع الوصول إليه حتى وهي على بعد عشرين سنتيمتراً منه (W.Kohler 1931) .

من الواضح إذاً أننا بصدد ذاكرة قوية نسبياً ، لا تقاس إليها ذاكرة الطيور . أما فيما يتعلق بأفراد النمل فلا نكاد نستطيع أن نتكلم عن ذاكرة . ويكفي للتدليل على ذلك أن محو الأثر الكيميائي (في أحد أجزاء الطريق) الذي تركه مجموعة من النمل أثناء سيرها ، لنلاحظ بعد ذلك شدة الارتباك والتردد في سلوك بقية النمل القادم نحو هذا الموضع ، وربما انتهى الأمر بعودته من حيث أتى دون الإقدام على عبور هذا الجزء من الطريق (الذي محونا منه الإثر الكيميائي) الذي سبق أن عبره عدة مرات جيئة وذهاباً .

ولاجدال أن هذه الدرجة من قوة الذاكرة المتوفرة لدى الشمبانزية شرط لا بد منه لقيام هذه الدرجة من تماسك الجماعة^(١) واستقرارها . وذلك لسببين : أولهما — ما تتيحه قوة الذاكرة من تعرف على الآخرين رغم ما يطرأ عليهم ما يطرأ عليهم من تغيرات جسدية ووجدانية . وقد لاحظنا أن هذا غير متوفر في تجمعات الطيور ، حيث تؤدي أبسط التغيرات التي تنتاب الكائن إلى عدم تعرف الآخرين عليه .

وثانيهما — أن قوة الذاكرة هذه يمكن اعتبارها دالة لثبات الهوية النفسية^(٢) للكائن إلى حد ما ، مما يدخل الاتساق على أرجاع الكائن . فإذا ما أضفنا إلى ذلك تلك الحقيقة التي أسلفنا ذكرها وهي أن الكثير من جوانب السلوك لدى الشمبانزية مكتسب من الآخرين بدلا من أن يكون محدداً على أساس النضج العضوي كما هو الحال في الطيور والحشرات ، استطعنا أن نفسر ظاهرة هامة

في حياة الشمبانزية ومؤداها أن جماعة الشمبانزية تمتاز بندرة التشاحن والاحتكاك بين أفرادها، هذا زيادة على استقرارها وتماسكها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) - هاهنا نتوقف قليلا لنلقى بعض الأضواء على المستوى الارتقائي لهذه التجمعات لأننا لا ندرسها في ذاتها ، بل ندرسها من حيث هي مقدمة فيلوجينية للمجتمع البشرى . أين توضع إذاً هذه التجمعات بالنسبة للجماعة البشرية من ناحية وبالنسبة لتجمعات النمل من ناحية أخرى ؟

إن الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل صفات واضحة في تجمعات النمل كما أسلفنا القول . لكنها تقوم في مستوى ارتقائي منخفض ، لأنها لا تتيح التكيف إلا في نطاق شديد الضيق والجمود . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على أساس كيميائي ، والتنظيم يعتمد على أساس مورفولوجي ، والتفاعل يعتمد على تبادل اللبس . أما تجمعات الشمبانزية فتتوفر فيها أيضاً صفات الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل ، ولكن في مستوى ارتقائي أعلى بكثير من المستوى السابق ، لأنها تتيح التكيف في نطاق أوسع وأشد مطاوعة وتنوعاً من السابق . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على عمليات تربية وعلى ذاكرة قوية ، والتنظيم يعتمد على قيام كل فرد في الجماعة بدور اجتماعي مستقر متسق له معاملة الواضحة (دون أن يكون هذا الدور مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بخصائص مورفولوجية معينة) . وهكذا يروى لنا كهلر W. Kohler كيف أن الشمبانزية « تشيجو » كانت دائماً الزعيم الذي يحترمه الجميع ويحشونه ، بينما كانت « رانا » موضع سخريتهم . وأما « سلطان » فكان في جميع تصرفاته يكشف عن ذكاء ورعونة بينما كان « قنصل » يكشف عن انفعالية شديدة دائماً . ويحدثنا كذلك عن قيام صداقات بين بعض أفراد التجمع قد لا تظهر دلائلها أثناء سير الحياة العادية ، لكنها تظهر وقت تجمع الأخطار ، فعندئذ يحتضن كل صديق صديقه . وفي النوم أيضاً ، إذ تفضل الشمبانزية وخاصة الصغار أن تنام أزواجاً يحتضن كل صديق صديقه (W. Kohler 1931, p. 299) أضف إلى ذلك ظاهرة أخرى في التنظيم تدل على الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي

ارتفاع مستواه الارتفاعي لدى القردة العليا جميعاً ، وهي أننا نجد أنفسنا هنا بصدد تغاير واضح في الجماعة يختلف نمطه عن نمط التغاير القائم في قرى النمل ؛ فثمة جماعة كبرى كأنها رهط أو قبيلة وهذه تتألف من عدة جماعات صغرى أسرية غالباً . والجماعة الصغرى بدورها تنطوي على مسافات اجتماعية مختلفة بين أفرادها ، فبعض الأفراد تتيح العلاقة القائمة بينهم المشاركة في الطعام ، في حين أنها لا تتيح ذلك بينهم وبين أفراد آخرين من نفس الجماعة الأسرية . والأنثى تقرب أبناءها الصغار منها دائماً وتساعدهم وقد تلعب معهم ، والصغار قد يتجمعون معاً في تجمعات عابرة هدفها اللعب ، وهكذا . ومن الواضح أننا لا نجد هذا النمط من التغاير في تجمعات النمل ولا في تجمعات الطيور بل ولا في تجمعات الثدييات الدنيا .

وفيما يتعلق بالتفاعل بين أفراد الجماعة « فالعامل عن بُعد » عنصر هام يجب إبرازه لإكمال فكرتنا عن ارتفاع هذا المستوى في السلسلة الارتقائية . وقد تحدث كثير من الباحثين عن قيمة العامل الصوتي لدى الشمبانزية والقردة العليا بوجه عام . ويروي يركيز عن النسانيس النابجة أنه إذا اقتربت جماعة غريبة من أرض تستقر فيها جماعة أخرى نشأت بين الفريقين معركة بالأصوات لا بالأجسام إذ يقف الفريقان متباعدين ويصدران أصوات التهديد بعضهما إلى بعض ، وقد تنتهي المعركة على هذا النحو بانسحاب الفريق المقرب دون أي التحام جسدي (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) . كذلك إذا استرسل صغيران في اللعب بالقرب من يافع فإن هذا الأخير لا يلبث أن يصدر صوتاً خاصاً يكون بمثابة التحذير والتهديد للصغيرين ؛ فيتغير سلوكهما بالابتعاد أو التوقف . وفي جماعات الشمبانزية إذا هاجم المدرب أحد القردة تحت أنظار الجماعة فإن مظاهر الاضطراب تنتشر بينهم جميعاً . وقد يندفع بعضهم إلى القيام بعمل معين كالشمبانزي « قنصل » الذي كان يجري مضطرباً ويمد ذراعه إلى من يوقع العقاب على زميله ، وترتسم على وجهه دلائل التوسل ،

ويحاول أن يمسك بذراعه ثم لا يلبث أن ينهال بالضرب على المدرب المعتدى (W. Kohler 1951, p. 286). كذلك إذا شاهد أفراد الجماعة واحداً منهم في حالة تألم وضعف شديدين لمرض أو ما شاكل ذلك فإنهم يبدوون الاهتمام الشديد بالاقتراب منه ومحاولة احتضانه أحياناً . فالقردة العليا بوجه عام والشمبانزية بوجه خاص تتفاعل فيما بينها بناء على ما يصدر عنها من إشارات صوتية وحركية . وقد وصف كهلر ويركيز الكثير من هذه الإشارات، واستطاع أن يحدد دلالتها . وهذا يتفق كثيراً مع ما يقرره روثمان وتوير M. Rothmann & E. Teuber ويركيز وغيرهم عن ارتقاء حاستي البصر والسمع لدى الشمبانزية وبلوغهما درجة عالية من الدقة . وما لاشك فيه أن اعتماد التفاعل على الإشارات الصادرة عن بعد يدخل عليه درجة من المرونة تتمثل في تنوع أساليب التقارب بين الأفراد مما لانجد له مثيلاً في المستويات الارتقائية الدنيا . وثمة عدة ظواهر سلوكية تدل على درجة عالية من المرونة في سلوك الشمبانزية نضيفها إلى ما سبق ذكره . ومن أوضح هذه الظواهر ما يشاهد من أن الشمبانزية «لا تستجيب مباشرة لحاجاتها البيولوجية، بل قد توجهها قليلاً حتى تنهى من بعض التعبيرات الانفعالية (W. Kohler 1931, p. 294) ومنها كذلك ما يشاهد من مظاهر تدل على نمو الخيال بدرجة واضحة؛ فالشمبانزي الذي تقدم له المرأة ليرى فيها صورته يقوم بوضع محاولات للوصول إلى الكائن القائم خلف المرأة ، ثم لا يلبث أن يتأكد من عدم واقعيتها، ومع ذلك يظل يلعب بالمرأة ولا يفقد الاهتمام بها . في حين أن الثدييات الأخرى كالكلاب والقطط إذا واجهت مرأة لا تلبث أن تفقد الاهتمام بها بعد أن تتأكد من عدم وجود الكائن الآخر (W. Kohler 1931, p. 317) ومن دلائل نمو الخيال أيضاً ما يقرره روثمان وتوير من أن الشمبانزي يحلم أثناء نومه . على أن يركيز يثبت زيادة على ذلك وجود الخيلة المبدعة لدى الشمبانزية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 369) وتعتبر تجارب كهلر الشهيرة أوضح دليل على ذلك، لما تكشف عنه من قدرة لدى الشمبانزية على استعمال الأشياء «كأدوات لأداء

وظائف جديدة» ، أى بعبارة أخرى «لخلق علاقات جديدة» .
والخلاصة إذاً أننا بصدد مستوى عال من مستويات التكامل الاجتماعى ،
يتوفر فيه الاستقرار الدائم بدلا من هذا النمط المتقطع الموسمى الذى نشهده عند
الطيور . كما تتوفر فيه درجة من التغيرات والمرونة تجعل منه نمطاً يختلف اختلافاً
كيفياً عن نمط تجمعات النمل المتحجرة . ووجه الشبه والتقارب بين هذا النمط
وبين نمط التجمع الإنسانى واضح لاشك فيه .

ويستند هذا التشابه في نمط التكامل الاجتماعى إلى تشابه بيولوجى
وفيزيولوجى يجب ألا نغفله . فالرأى الراجح اليوم أن المدة التى يقضيها الجنين
الشمبانزى في رحم الأم هى تسعة أشهر قمرية ، وهى قريبة جداً من المدة التى
يقضيها الجنين البشرى في رحم أمه ، وهذا يدل على تقارب في النمو الأمريولوجى
(E.A. Hooton 1947, p. 227) أضف إلى ذلك أن القاعدة العامة هى أن المولود
طفل شمبانزى واحد، وليس عدداً من الصغار ، وهذا يتيح له الفوز بأكبر قسط
من عناية الوالدين ويربطه بهما برباط عاطفى قوى ؛ ومن الملاحظ بوجه عام
قلة عدد المواليد (في الدفعة الواحدة) كلما ارتقينا في سلم التطور حتى تصبح القاعدة
في القرود العليا وفي الإنسان هى المولود الواحد (E.A. Hooton 1947, p. 74)
ثم إن الشمبانزى يبلغ نضجه الجنسى فيما بين السنة الثامنة والعاشرة من عمره .
وهذا الوقت من العمر قريب من بدء البلوغ^(١) عند الإنسان (في مجتمعنا
الحديث) ، إذ يقع في حوالى الثانية عشرة . وتمارس الإناث دورة حيضية كلما
انقضت ثلاثون أو واحد وثلاثون يوماً . ولا يوجد لديها فصل خاص للإخصاب
كما هى الحال لدى الطيور وبعض فصائل الثدييات الدنيا ، ولكن توجد
فترات خاصة لتقبل الأثنى الاتصال الجنسى مرتبطة بالدورة الحيضية .
ومتوسط العمر لدى القرود العليا بوجه عام حوالى خمسين عاماً ، وهو قريب من متوسط
العمر لدى الإنسان البدائى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929 & 1935)
هذا إلى أن الأرجاع الصادرة عن بلازما الدم لدى الإنسان والشمبانزى متشابهة ، في حين

أنها مختلفة عن أرجاع بلازما دم الثدييات الأخرى (E.A. Hooton 1947, p. 44) هذا التقارب البيولوجي بين الشمبانزية والإنسان من وراء التشابه في نمط التجمعات لدى كل منهما ، يقوم - في نظرنا - دليلاً غير مباشر على ارتباط « التكامل الاجتماعي » عامة بشروط بيولوجية وفيزيولوجية معينة لا بد من توفرها حتى يتسنى له أن يتحقق. فبدون هذا التأخر الشديد في النمو والقدرة على الاستقلال عن الوالدين يتعذر قيام هذا الارتباط الشديد والمتنوع بين الأم والوليد ، ويتعذر بالتالي بلوغ الشمبانزية هذه الدرجة من « الاجتماعية » التي أوضحنا بعض معالمها . كما أنه لولا توفر اللحاء في دماغ الشمبانزية بنسبة تفوق النسبة التي يوجد بها في أدمغة سائر الثدييات الدنيا ، وبدون ارتقاء الآليات الحسية الحركية لديها (S. Zuckerman 1932) لما تيسرت لها هذه القدرة الكبيرة على التذكر والاكتساب ومرونة السلوك بوجه عام. على أن القدرة على المحاكاة وهي أحد شروط القدرة على الاكتساب تعتمد هي بدورها على ارتقاء « حواس الإدراك عن بعد » وبلوغ مراكزها درجة عالية من التغير ، وهذا متوفر لدى الشمبانزية فيما يتعلق بحاسة الإبصار . أضف إلى ذلك أن عدم ارتباط النشاط التناسلي للشمبانزية بمواسم معينة ينشط بحلوطها ويخمد بزوالها كما هو الحال لدى الطيور والثدييات الدنيا بيد وشرطاً فيزيولوجياً هاماً لاستمرار ارتباط أعضاء الجماعة الأسرية وعدم تفككها من حين لآخر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935; S. Zuckerman 1932).

إلا أن هذا التقارب الواضح بين تجمعات الشمبانزية والجماعة البشرية والذي يفرض نفسه علينا ما دمتنا ننظر إلى ارتقاء الاستجابات الاجتماعية في السلسلة الحيوانية ككل، لا يلبث أن ينجلي عن تباعد شديد إذا ما اقتصرنا في نظرتنا على المقارنة بين تجمعات الشمبانزية والجماعات البشرية فحسب . ولا بد من تغيير دائرة نظرنا هكذا لكي نلمس الفوارق ولكي نلمس المميزات الكيفية للتكامل البشري ، فنلمس لها أسسها الكيفية الفارقة . ومن هنا تبدو

أهمية هذه الوقفة التي نقفها عند تجمعات الشمبانزية . فإن النظر في هذا التقارب بينها وبين الجماعات البشرية من شأنه أن يمكننا أكثر من أى شيء آخر من الاطلاع على الفوارق الدقيقة . وأوضح مواضع الافتراق التي نشهدها على ضوء هذه المقدمة الفيلوجينية ، وأهما جميعاً ، موضعان ، هما :

١ - اللغة .

٢ - والتعاون المنظم المستمر .

١ - فأما فيما يتعلق باللغة فليس لدى الشمبانزية لغة بالمعنى الخاص للغة عند الإنسان . إن الشمبانزية تستطيع أن تصدر مجموعة من الأصوات المتنوعة تنوعاً كبيراً ، وهذه تحتوى على معظم العناصر الصوتية التي تتألف منها لغة الإنسان ، لكنها مع ذلك لا تؤلف بينها بطريقة تصنع منها لغة كاللغة الإنسانية ، ولذلك يرجح كهلر W. Kohler أن عدم ظهور اللغة عند الشمبانزية لا يرجع إلى أسباب تتعلق بتركيب الجهاز الصوتي بل إلى أسباب تتعلق بطبيعة ارتقاها العصبي (W. Kohler 1931, p. 305) وقد تحدثنا من قبل عن اعتماد التفاعل الاجتماعي لديها أحياناً على إصدار بعض الأصوات . وهنا يجب أن نقرر أن هذه الأصوات ليست لغة بالمعنى الصحيح . فهي ليست « رسالة موجهة إلى الآخر » هذا مع التسليم بأنه ينفعل لها . ولكنها مجرد تعبير ذاتي (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 309) كصياح الوليد البشري نتيجة لتقلصات المعدة أو ما شابهها من مصادر التوترات . ولما كان صياح الوليد البشري لا يمكن أن يسمى لغة رغم انفعال الآخرين له ، ولا يصبح لغة إلا إذا أصبح موجهاً ، طلباً لاستجابات معينة ، وحاملاً للدلالات موضوعية إلى جانب دلالاته الذاتية ، فكذلك الأصوات التي تصدرها الشمبانزية لا ترقى إلى مرتبة اللغة ، اللهم إلا أن يتوفر لها هذان العنصران الأخيران ، وهذا ما لا يحدث أبداً . ولذلك فإن معظم التفاعل الاجتماعي لدى الشمبانزية يتم بفضل لغة من نوع آخر أكثر بدائية وتحجراً ، هي لغة الإشارات والحركات الجسدية والاستدلال أحياناً ببعض الروائح .

والمبدأ الرئيسي لهذه اللغة هو المحاكاة الجزئية للفعل الذي يريده الشمبانزى من زميله ؛ فإذا أراد مصاحبه فإنه يجذب يده ويقوم بحركات المشى فى الاتجاه الذى يريد ، وإذا أراد الحصول على طعام معين فإنه يقوم ببعض حركات الاختطاف مصحوبة بنظرات التوسل ؛ وهكذا (W. Kohler 1931, p. 307) والفرق كبير بين الإمكانيات التعبيرية التى تتيحها مثل هذه اللغة، وتلك التى تتيحها اللغة المؤلفة من أصوات دالة ذات مقاطع . والفرق كبير أيضاً بين الشروط العصبية اللازمة لكل منهما ، كما أنه شاسع كذلك بين النتائج المترتبة على استخدام كل منهما فيما يتعلق بالنمو العقلى والتوافق الاجتماعى .

ويرجح يركيز أن يكون السبب فى عدم ظهور اللغة الصوتية عند الشمبانزى رغم وجود جهاز صوتى ملائم ودرجة من الذكاء ملائمة هو فى عدم وجود الميل إلى محاكاة الأصوات . وقد تحدثنا من قبل عن شدة ميلها إلى المحاكاة ، وهنا يجب أن نزيد الأمر تفصيلاً فنتحدث عن شدة تخصص هذه المحاكاة . فهى على حد تعبير يركيز محكومة أساساً بوساطة المنبهات البصرية . ولذلك يروى هذا الباحث أنه عندما كان يتعهد الشمبانزين « شم » و « بانزى » أدهشه أنهما كثيراً ما كانا يحاكيان حركاته ، لكنهما لم يحكيا أبداً الأصوات التى كان يصدرها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 306) وعلى الضد من ذلك ما نلاحظه من ميل لدى الوليد البشرى إلى محاكاة أصوات الآخرين ، منذ الشهور الأولى فى حياته ، بحيث يقرر كوفكا K. Koffka أن هذا الميل فطرى وسابق على كل مران (M.M. Lewis 1936) وقد حاول كل من يركيز وليرند B.W.Learned وفيرنس W.H. Furness أن يعلم بعض أنواع القردة العليا النطق ببعض الأسماء طلباً لمسمياتها ففشلوا (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 304) جميعاً بعد ، جهود شاقة ولا يمكن اعتبار تجربة فيرنس على الأورانج أوتان ناجحة فى استثارة « اللغة » فى أحد المستويات تحت البشرية ، إذ هى لا تعدو إلقاء بعض الضوء على توفر بعض آليات التآزر اللازمة

لظهور اللغة ، ولكن لا يمكن أن نستنتج منها توفر جميع الارتباطات العصبية التي يقوم عليها النشاط اللغوي . ومع التسليم بالنتائج التي انتهى إليها يركيز ونيسين H.W.Nissen^(١) من وجود البذور الأولى للعمليات الرمزية ، (M.P. Crawford 1941) وتلك التي انتهى إليها كوتس Kohts من وجود بذور عمليات التجريد والتعميم ، إلا أن هذه جميعاً تظل في حدود كونها بذوراً ، فهي نادرة التفتح شديدة البدائية في تفتحها إذا قورنت بما هي عليه في الإنسان .

٢- وأما فيما يتعلق بالتعاون المنظم المستمر فهذا أيضاً لا وجود له لدى الشمبانزية وقد نشهد بعض الظواهر التي تو شك أن تخدعنا فتشعرنا بوجوده لكن إمعان النظر فيها لا يلبث أن يطلعنا على الحقيقة . ومن بين هذه الظواهر ما رواه كهلر من أنه كثيراً ما كان يشهد الشمبانزية تشرك في إقامة بناء مرتفع من الصناديق أحدها فوق الآخر ، للوصول إلى هدف معين (كأن يكون طعاماً مدلى من سقف المكان) . إلا أن هذا العمل لم يكن من قبيل العمل التعاوني الذي يكشف عن اشتراك منظم ينطوي على « تقسيم عمل اجتماعي » مستقر بين الأفراد . فكثيراً ما كان يشهد الأفراد تحاول الصعود جميعاً نحو الهدف في وقت واحد ، وكأن كلا منها يعمل منفرداً . وكان يشهد أحياناً فردين يقيمان البناء جنباً إلى جنب ، ولكن سرعان ما يرى أحدهما يسلك بدون أى اعتبار للآخر ، فلا يلبث أن يقعا في عراك ، وكلما ارتفع البناء احتدم الصراع وتوقف العمل عن التقدم . والنتيجة تحطيم هدف العمل أثناء العمل . ثم تبدأ القردة العمل من جديد . وهكذا حتى يدركها الملل . وكان يشهد أحياناً مجموعة تجذب جسماً كبيراً (لا يمكن لأحد أفرادها أن يجذبه منفرداً) للوصول بوساطته إلى هدف معين . ولكن كلا منها كان في الواقع يعمل لحسابه الخاص ولا يعمل في مشروع جماعي ، إذ سرعان ما كان أحدهم يقفز ويفوز

(١) Yerkes, R. M. & Nissen, H. W. Pre Linguistic Sign Behavior in Chim- panzee, *Science*, 1939, 89. 585-587 (in M. P. Crawford 1941)

بالمهدف منفرداً (W. Kohler 1931, p. 661) وقد أجرى كروفورد M.P. Crawford بضع تجارب لاستثارة التعاون بين الشمبانزية، فانتهى إلى نتائج لا تختلف كثيراً مع آراء كهلر التي يقيمها على أساس الملاحظة . ذلك أن ما اعتبره ظهوراً لسلوك الدعوة والإهابة^(١) - وفي رأيه أنه بؤادر السلوك التعاوني - كان يغلب عليه التحجر؛ فكانت الشمبانزية «بولاً» متكاسلة غالباً بينما كانت «بمبا» تدفعها إلى العمل بأن تلمس ذراعها ورقبتها وتدفعها برفق نحو موضوع العمل . وفي جزء آخر من التجربة حيث كان الطعام يوضع عند إحدى الشمبانزيتين دون الأخرى كانت «بمبا» تحاول دائماً الاختطاف بالقوة إذا كان الطعام عند «بولاً» بينما كانت بولاً تحاول دائماً التوصل بمد ذراعها إذا كان الطعام عند «بمبا» (M. P. Crawford 1941) ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن سلوك تعاوني صحيح . لأن السلوك التعاوني يتضمن القدرة على تغيير موقفنا تبعاً لمواقف الآخرين . وإذا كان كروفورد M.P. Crawford يقرر ظهور سلوك «المراقبة» لتصرفات الآخر في تجاربه ، وهذا يتضمن محاولة إدراك موقف الغير ، فإن كل ما نستطيع أن نستنتجه هنا لا يعدو ما سبق أن استنتجناه فيما يتعلق بالعمليات الرمزية وعمليات التجريد والتعميم ، فنحن هنا بصدد البذور الأولى ، وهي نادرة التفتح شديدة البدائية في تفتحها إذا ما قورنت بما هي عليه في حالة الإنسان .

وقد حدثنا كهلر عن مظاهر سلوكية خادعة جداً لدى الشمبانزية ، أشد خداعاً من تلك التي يكشف عنها سلوك الشمبانزية في تجارب كروفورد . فقد كان يرى أحياناً أحد الشمبانزية «يساعد» الآخر في الوصول إلى شيء معين . ولكنه عندما كان يدخل في حسابه جميع ملابسات الموقف لم يكن يلبث أن يرى هذه «المساعدة» على حقيقتها . فهي لم تكن تنطوي على «اعتبار موقف الغير وتقديم العون له على هذا الأساس» ، بل كانت تقوم على أساس توفير

الشروط اللازمة لاستمرار الفعل؛ إذ أن الشمبانزى يستمتع استمتاعاً فردياً بمشاهدة الآخر يعمل، كما نستمتع نحن عندما نشاهد شخصاً آخر يقوم بعمل معين نحن نعرف خطواته مقدماً، فنشارك عندئذ في هذا العمل ولكن على أساس فردي (W. Kohler 1931, p. 168) نحن «لا نعتبر موقف الآخر»، بل نشارك مشاركة فردية (خيالية) في استمرار الفعل. والدليل على ذلك أننا لا يهمننا عندئذ التعرف على مصادر عجز الآخر لمساعدته إذا بدا أنه يبذل جهداً شاقاً، بل يهمننا انطلاق الفعل نحو نهايته التي نتخيلها له. إلا أن الأعمال التي تمضى لدينا على هذا النحو هي «بعض أعمالنا مع الآخرين»، لكنها لدى الشمبانزية تكاد تكون «كل أعمالنا مع الآخرين».

ويرى كهلر أن الشمبانزية أقدر على العرقلة المتبادلة منها على تبادل المساعدة. ويروى مثلاً على ذلك حادثة الشمبانزية «جراند» التي رأت شمبانزية أخرى تقيم بناءً عالياً من الصناديق فتحفزت لأن تهدمه، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك. فلما اقتربت شعرت بذلك الشمبانزية الأخرى وكانت قائمة في أعلى البناء، وعندئذ هدمته هي نفسها بحركة مقصودة قبل أن تمسه «جراند»، مما أغاظ هذه الأخيرة بشكل واضح (W. Kohler 1931, p. 171) على أن هذا المثال رغم أنه مثال عن سلوك العرقلة المتبادلة فإنه يكشف لنا في الوقت نفسه عن توفر أحد الشروط اللازمة لظهور سلوك المعاونة المتبادلة. وأعني به إمكان إدراك «وجهة نظر الآخر». ولكن من الجلي أن هذا الشرط وحده لا يكفي لظهور السلوك التعاوني.

فاذا ينقص الشمبانزية حتى يظهر لديها السلوك التعاوني الصحيح؟

ينقصها عدة عناصر أو شروط نوجزها فيما يلي :

١ - المتابعة على العمل المنتج المتواصل. وفي ذلك يروى كهلر الواقعة الهامة التالية : يقول إنه لاحظ أن الشمبانزية «نويفا» كانت مولعة بصنع عقدة، وذلك بوساطة بعض الخرق التي تعثر عليها أو بوساطة شرائح من ورق الشجر.

فهي تجمع طرفي الخرقعة وتعهدها ، ثم تعقد عقدة أخرى بالجمع بين الطرفين الصادرين من هذه العقدة . وقد ظن كهلر أنها مقدمة على عمل بنائي منتج من قبيل الصناعة اليدوية ، فأعد لها إطاراً خشبياً تمر بثقوب منه بضع شرائح من ورق الشجر وقدمه إليها ، لعلها أن تصل في النهاية إلى صنع « نسيج » بدائي . لكنها أولته ظهرها وانصرفت إلى عقدها . فلما حاول أن يضغظ عليها لتوجه جهودها نحو هذا العمل المنتج المتواصل أظفأ اهتمامها بالعمل كلية (W. Kohler 1931, p. 312) ويبدو أن هذا العمل الذي أراد كهلر أن يدفعها إليه كان أعلى بكثير من مستوى قدراتها . فلماذا ؟ لسببين يتبينان في الشرطين التاليين اللذين تفقدتهما الشمبانزية أيضاً .

٢ - اتساع « مجال الحياة الزمني » نحو المستقبل . وقد رأينا في حياتنا عن الذاكرة اتساع مجال الحياة الزمني لدى الشمبانزية نحو الماضي . أما في الاتجاه نحو المستقبل فيبدو أنه لا يتسع بهذا القدر . فالشمبانزية لا تستطيع أن تسقط على المستقبل البعيد صورتها وقد حققت بعض حاجاتها ، لتكون بمثابة باعث لها على مواصلة العمل في اتجاه معين . وقد حدثنا كهلر عن أنها يدخل المستقبل فعلا في اعتبارها ؛ فقد نجدها تنفق وقتاً طويلاً في إعداد أداة معينة للوصول بها - بعد إعدادها - إلى هدف معين . ولكننا نجدها من حين لآخر تنظر إلى الهدف (W. Kohler 1931, p. 172) والمستقبل هنا ضيق الحدود إلى حد بعيد ، مما لا يتضمن القدرة على العمل طبقاً لخطة بعيدة الأجل . ولما كان « العمل المنتج » يتضمن دائماً العمل طبقاً لخطة وسعياً وراء هدف (خيالي) غير مائل أمامنا في الوقت الحاضر - كما هو الحال في جميع الأعمال الزراعية والصناعية والفكرية - فقد عجز الشمبانزي عن القيام بأي عمل منتج متواصل ، وبالتالي عاش في مرحلة الجمع والالتقاط ، ولم يستطع أن يشيد حضارة كما يقول كروبر (A.L. Kroeber⁽¹⁾ (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929; p. 255) من

(1) Kroeber, A.L. Sub-human Culture Beginnings, *Quart. Rev. Biol.*, 3, 1928 (in Yerkes 1929).

حيث إن الحضار تجمع لأعمال منتجة، ومن الواضح أن العجز عن القيام بعمل منتج متواصل لمدة طويلة يقضى على إمكانية التعاون المجدى^(١).

٣- الاستقرار الوجدانى : يبدو كذلك أن من أهم أسباب هذا العجز عند الشمبانزية عجزها عن الاستقرار الوجدانى . ومن الواضح أن الارتباط بقيمة معينة (قيمة الهدف أو قيمة العمل) والتكريس في سبيلها، وهما شرط استمرار العمل ، يتطلبان هذا الاستقرار وهو غير متوفر لديها . وقد حدثنا كهلر عن كثير من مظاهر هذه الانفعالية غير المستقرة . فعندما كان يوقع على أحد الشمبانزية اليافعة أشفه مظاهر العقاب وأخفها كانت تبدى غضباً عنيفاً لا يتناسب وتفاهة العقاب ، ولا يتناسب وسابق سلوكها معه الذى كان يتم في كثير من لحظاته عن حب وتعاون عابر . كذلك كانت سائر الشمبانزية تندفع في إعصار من الغضب نحو المدرب ومحاولة الاعتداء عليه ، حتى إنه ليقرب ضرورة العدول عن محاولات العقاب نهائياً وإلا تعرض للأذى بلا رحمة ولا اعتبار . ثم إن الشمبانزى الذى وقع عليه العقاب لم يكن يلبث أن يقوم بحركات مؤداها « طلب العفو » بسرعة وبدون استقرار على غضب أو ضغينة . وبوجه عام نجدها عاجزة عن أن ترتبط ارتباطاً وجدانياً عميقاً بأية قيمة جاذبة أو منفرة ، فهى تعيش في مستوى وجدانى لا يكاد يختلف عن مستوى الطفل البشرى (في السنتين الأوليين من العمر) من حيث مظهره المتحقق لا من حيث إمكانياته ، أو بعبارة أخرى في المستوى الوجدانى للسيكوباتى ، الذى يبدى عجزاً واضحاً عن أى ارتباط وجدانى عميق . فما تقوله سوزان أيزاكس S. Isaacs عن الأطفال من أن « بغضهم حاد شديد ، ولكنه ابن لحظته فقط » ، ومن أنهم إذا لم يتعرضوا للقمع عبروا عن غيظهم

(١) سنتحدث في موضع قادم عن الارتقاء الاجتماعى للطفل فيما قبل الرابعة . وسنبين حينئذ أن من أهم أسباب عجزه عن تكوين جماعات عجزه عن المساهمة في وضع « خطط المستقبل » حتى تواصل الجماعة نشاطها .

وتحديهم بهيج وحدة شديدتين نحو من يعترض إحدى رغباتهم وتمنوا زواله والقضاء عليه مهما يكن إخلاصهم له وتفانيهم في حبه في أوقات أخرى (س. أيزاكس ١٩٤٦ ، ص ٩٣) . وما يقوله الدكتور صبرى جرجس من شدة ضحالة الحياة الوجدانية وجد بها لدى السيكوباتيين وعجزهم عن الانفعال الناضج (ص . جرجس ١٩٤٩ ، ص ٢٢٩) الذى يمتاز أول ما يمتاز بالاستقرار وتوجيه حياة صاحبه وجهة معينة تمتاز بالاستعداد لانطلاق الاستجابات في اتجاه معين - ، إنما ينطبق إلى حد كبير على الحياة الوجدانية للشمباتية . وربما كان تشبيه الشمباتية بالسيكوباتيين في هذا الصدد أقرب إلى الدقة من تشبيهها بالأطفال . وإذا جاز لنا أن نستطرد بعض الشيء في هذا التشبيه قلنا إن مجتمع الشمباتية يعيش في المستوى الذى يعيش فيه مجتمع من السيكوباتيين لو أمكن لهذا الأخير أن يوجد . ومن الملاحظات الطريفة في هذا الصدد عجز السيكوباتيين - الشبيه بعجز الشمباتية - عن العمل المنتج المستمر سعياً وراء هدف في المستقبل البعيد . وعجزهم التام عن التعاون الصحيح مع الآخرين .

من هاتين النقطتين ٢ و ٣ يتبين لنا السبب في أن الشمباتية « نويفا » انصرفت عن العمل الذى أرادها كهلر أن تقوم به ، فقد كان خارج نطاق قدراتها واستعداداتها الفطرية . كما أن النقاط الثلاثة جميعاً تبين لنا إلى أى حد تفقد الشمباتية مقومات السلوك التعاونى المتصل الذى لا بد منه لقيام حياة اجتماعية من الطراز الإنسانى .

على أننا نضيف كذلك نقطتين أخريين ، من شأنهما أن يوضحا سبب عدم ظهور السلوك التعاونى لدى الشمباتية . ومن شأنهما كذلك أن يلقيا بعض الضوء على الدعائم السيكلوجية لنمط الاجتماع الإنسانى .

٤ - « فالقدرة على اعتبار الآخر والاستجابة له في المستوى الخيالى » مسألة هامة وأساس نفسى هاد لظهور السلوك التعاونى . فهى مثلاً الأساس العميق الذى تقوم عليه معظم تصرفاتنا نحو أبنائنا في غيبتهم . فقد تصادفنى في الطريق

دمية لا ألبث أن أشتريها لأني « أتخيل » مقدار الفرح الذي ستدخله على ابنتي عندما أفاجئها بها . وقد أوجلت شراء شيء يلزمني لأشتري بثمانه هدية أقدمها لصديقي في عيد ميلاده ، وقد أبكى بكاء مرأ عندما يبلغني نبأ وفاة شخص من أعزائي ، ويزداد حزني وبكائي إذا حدثني البعض في تفاصيل الحادث الذي أدى إلى وفاته . في هذه القدرة تكمن بذور المشاركة الوجدانية واستطاعتنا تغيير موقفنا تبعاً لموقف الآخر . وهي التي سماها أندرسون H. H. Anderson بالاستجابة لفوارق الغير (H. H. Anderson 1943) فهل توجد هذه القدرة عند الشمبانزية ؟ كلا . بل يوجد شيء شبيه بها لكنه لا يرقى إلى مستواها . فإذا شاهد أفراد الجماعة فرداً منهم في حالة تألم وضعف شديد بدت عليهم علامات الاهتمام الشديد به بل وقد تبدو عليهم مظاهر بذل المساعدة له . وقد نجد أحدهم يقرب منه ويحاول أن يحتضنه ويربت على ظهره . ولكن لو أن هذا الفرد مات في حجرته دون صياح ولا ضجيج فإن الجماعة لا تشعر بموته ولا تحزن له بل تواصل نشاطها اليومي المعتاد . ومعنى ذلك أن الشمبانزية لا تستطيع المشاركة في مستوى خيالي (W. Kohler 1931, p. 285) .

هـ - كذلك يبدو أن ثمة سبباً خامساً لتعطل السلوك التعاوني لدى الشمبانزية ، ونعني به انخفاض درجة تخصص الحاجات والدوافع كتخصصها لدى الإنسان . وقد حدثنا كهلر عن الحوافز الجنسية لديها وكيف أنها أقل « تغايراً » من بقية مظاهر النشاط . ولذلك فإن أي تنبيه قوى - أيا كان مصدره - لا يلبث أن يثير هذه الحوافز ضمن إثارة الشمبانزي إثارة عامة . ويبدو أن هذه الإثارة العامة تنطبق على سائر الدوافع ، هذا إذا أدركناها على أنها دليل على مستوى ارتقائي معين . (من حيث إن زيادة الارتقاء تمضي نحو زيادة التغاير) . ومن الجلي أن مثل هذه التربة ليست صالحة لظهور السلوك التعاوني لدى الأفراد ، لأن يقظة الدوافع المتشابهة في معظم المواقف من شأنها أن تدفع أصحابها نحو نفس الهدف الخاص ، مما يغلب بينها الصراع والتناحر بدلا

من التعاون . وسنرى عندما نتحدث عن الارتقاء الاجتماعي للطفل كيف أنه يتعذر على الأطفال حتى سن الرابعة إقامة جماعات مستقرة بينهم لأنهم غالباً ما يتعلقون بنفس الأهداف مما يغلب الصراع فيما بينهم ؛ ومن المعلوم أن الأجهزة النفسية لدى الأطفال أقل تغيراً منها لدى الراشدين . كما أن اختلاف الاهتمامات لدى الراشدين وتقسيم العمل الاجتماعي المرتب عليها - من الجوانب الهامة في عملية التكامل الاجتماعي بوجه عام .

النتيجة النهائية إذاً أن نمط التكامل الاجتماعي لدى الشمبانزية يختلف اختلافاً كبيراً عن نمطه لدى الإنسان . وهو يقوم في مستوى ارتقائي أدنى منه ، بحيث إن الهوة الفاصلة بينهما لا يمكن عبورها بمجرد عمليات تربوية ، لأن هذه الهوة إنما تقوم على اختلافات عضوية حاسمة ، أهمها ضآلة كتلة المخ لدى الشمبانزية بالنسبة لكتلته لدى الإنسان ، إذ تبلغ ربع هذه الأخيرة ، مع أن كتلة جسم الشمبانزي اليافع أقرب من ذلك كثيراً بالنسبة إلى كتلة جسم الإنسان الراشد . أضف إلى ذلك بعض اختلافات في كيمياء الدم رغم أوجه الشبه التي سبق أن ذكرناها (E.A. Hooton 1947, p. 44) .

إن تجمعات الشمبانزية رغم تفوقها على تجمعات الطيور بالاستقرار ، وعلى تجمعات النمل بالمطاوعة، فإن استقرارها ومرونتها ليبدو أن ضئيلين جداً بالنسبة لاستقرار الجماعة البشرية ومطاوعتها، وبالتالي لإمكاناتها . وسنرى في الفصول القادمة ما هي الأسس النفسية التي يعتمد عليها نمط الاجتماع البشري ، من حيث إنه نمط فريد في استقراره وتضامنه من حيث الشدة والعمق ، وفريد في مطاوعته من حيث الإمكانيات العظيمة لهذه المطاوعة .